القسم الأول
فى أدب الكاتب وصناعته
وفيه بابان
الباب الأول
فى آداب العلم والتعليم
وفيه ستة فصول
الفصل الأول
فى شرف العلم

إعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مَا رَغِبَ فِيهِ الرَّاغِبُ. وَأَفْضَلُ مَا طَلَبَ وَجَدَّ فِيهِ الطَّالِبُ. وَأَنْفَعُ مَا كَسَبَهُ وَاقْتَنَاهُ الْكَاسِبُ. لأَنَّ شَرَفَهُ يُثْمِرُ عَلَى صَاحِبِهِ. وَفَضْلَهُ يَنْمِى عَلَى طَالِبِهِ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ[1] لِبَنِيهِ يا بَنِىَّ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنْ كُنْتُم سَادَةَ فُقْتُمْ. وَإِنْ كُنْتُمْ

(١) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى القرشى أبو الوليد من أعاظم الخلفاء ودهائهم. نشأ فى المدينة فقيهًا واسع العلم، متعبدًا، ناسكًا، وشهد يوم الدار مع أبيه واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ عامًا وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ، فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، فكان جبارًا على معانديه، قوى الهيبة واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابنى الزبير فى حربهما مع الحجاج الثقفى. ونقلت فى أيامه الدواوين من =

وَسَطًا سُدْتُمْ. وَإِنْ كُنْتُمْ سُوقَةً عِشْتُمْ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ تَعَلَّمِ الْعِلْمَ فَإِنَّهُ يُقَوِّمُكَ وَيُسَدِّدُكَ صَغِيرًا. وَيُقَدِّمُكَ وَيُسَوِّدُكَ كَبِيرًا. وَيُصْلِحُ زِيْغَكَ وَفَاسِدَكَ. وَيُرْغِمُ عَدُوَّكَ وَحَاسِدَكَ. وَيُقَوِّمُ عِوَجَكَ وَمَيْلَكَ. وَيُصَحِّحُ هِمَّتَكَ وَأَمَلَكَ. وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ[1]: تَعَلَّمِ الْعِلْمَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ كَانَ لَكَ جَمَالاً.

= الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من صك الدنانير فى الإسلام، وكان عمر بن الخطاب قد صك الدارهم. وكان يقال: معاوية للحلم. وعبد الملك للحزم.. ومن كلام الشعبى: ما ذكرت أحدًا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك، فما ذاكرته حديثًا ولا شعرًا إلا زادنى فيه، وكان أبيض طويلاً أمين رقيق الوجه. أفوه مفتوح الفم مشبك الأسنان بالذهب، مقرون الحاجبين مشرف الأنف، ليس بالنحيل ولا البدين، أبيض الرأس واللحية، ونقش خاتمه "آمنت بالله مخلصًا" توفى فى دمشق.

انظر المزيد: الكامل ٤/ ١٩٨، تاريخ الطبرى ٨/ ٥٦، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٤، ميزان الاعتدال ٢/ ١٥٣، المحبر ٣٧٧، مروج الذهب ٢/ ٨٦ - ١٠٣، تاريخ بغداد ١٠/ ٣٨٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٨ - ٣١١.

(١) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى القرشى أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال فى صدر الإسلام. نشأ بين يدى أخيه عبد الله بن الزبير فكان عضده الأقوى فى تثبيت ملكه بالحجاز والعراق وولاه عبد الله البصرة سنة ٦٧ هـ فقصدها وضبط أمورها وقتل المختار الثقفى. ثم عزله عبد الله عنها مدة سنة وأعاده فى أواخر سنة ٦٨ هـ وأضاف إليه الكوفة، فأحسن سياستهما. وتجرد عبد الملك بن مروان لقتاله، فسير إليه الكوفة، فأحسن سياستهما. وتجرد عبد الملك بن مروان لقتاله، فسير إليه الكوفة، فأحسن مصعب يفلها حتى خرج إليه عبد الملك بنفسه. فلما دخل العراق خذل مصعبًا قواد جيشه وأصحابه، فثبت فيمن بقى معه، =

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ كَانَ لَكَ مَالاً. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ[1] لِأَبْنِهِ

= فأنفذ إليه عبد الملك أخاه محمد بن مروان فعرض عليه الأمان وولاية العراقين أبدًا مادام حيًا ومليونى درهم صلة، على أن يرجع عن القتال، فأبى مصعب، فشد عليه جيش عبد الملك فى وقعة عند دير الجاثليق "على شاطئ دجيل من أرض مسكن" وطعنه زائدة بن قيس السعدى "أو عبيد الله بن زياد بن ظبيان" فقتله وحمل رأسه إلى عبد الملك وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك الشام وكانت فى البنهساوية بمصر قبيلة تنسب إليه تعرف ببنى مصعب. كان مولده سنة ٢٦ هـ/ ٦٤٧ م ومات سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م.

انظر المزيد فى: تاريخ الإسلام ٣/ ١٠٨، طبقات ابن سعد ٥/: ١٣٥، تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٥، نسب قريش ٢٤٩ - ٢٥٠.

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل الوزير السرى الجواد، سيد بنى برمك وأفضلهم وهو مؤدب الرشيد العباسى ومعلمه ومربيه، رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل. فكان يدعو: يا أبى وأمره المهدى سنة ١٦٣ هـ وقد بلغ الرشيد الرابعة عشرة من عمره أن يلازمه ويكون كاتبًا له وأكرمه بمائة ألف درهم وقال: هى معونة لك على السفر مع هارون. ولما ولى هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى يجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه فى «الرقة» إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م وكان مولده ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م. فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم، أخباره كثيرة جدًا. قال المسعودى: كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الجسنة. من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا. ويستفاد من كشف الظنون أن أول من عنى بتعريب المجسطى يحيى بن خالد، فسره له جماعة ولم يتقنوه فأتقنه بعدهم بعض أصحاب بيت الحكمة. ومن كلام يحيى لبنيه: اكتبوا أحسن ما تسمعون وأحفظوا أحسن ما تكتون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون. =

عَلَيْكَ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْعِلْمِ فَخُذْ مِنْهُ فَانَّ الْمَرْءَ عَدُوُّ مَا جَهِلَ وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ عَدُوَّ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ. وَأَنْشَدَ:

تَفَنَّنْ وَخُذْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ فَإِنَّمَا
يَفُوقُ امْرُؤٌ فِي كُلِّ فَنٍّ لَهُ عِلْمُ
فَأَنْتَ عَدُوٌّ لِلَّذِي أَنْتَ جَاهِلٌ
بِهِ وَلِعِلْمٍ أَنْتَ تُتْقِنُهُ سِلْمُ

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: كُلُّ عِزٍّ لاَ يُوَطِّدُهُ عِلْمٌ مَذَلَّةٌ وَكُلُّ عِلْمٍ لاَ يُؤَيِّدُهُ عَقْلٌ مَضِلَّةٌ. وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ: إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالنَّاسِ خَيْرًا جَعَلَ الْعِلْمَ فِي مُلُوكِهِمْ وَالْمُلْكَ فِي عُلَمَائِهِمْ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ الْعِلْمُ عِصْمَةُ الْمُلُوكِ لأَنَّهُ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ. وَيَرُدُّهُمْ إِلَى الْحِلْمِ. وَيَصُدُّهُمْ عَنِ الأَذِيَّةِ. وَيَعْطِفُهُمْ عَلَى الرَّعِيَّةِ. فَمَنْ حَقَّهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا حَقَّهُ وَيَسْتَنْبِطُوا أَهْلَهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ[1] الْعِلْمُ

= انظر المزيد في: إرشاد الأريب ٧/ ٢٧٢، وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٣، البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٤، البيان المغرب ١/ ٨٠، الوزراء والكتاب ٣٥، تاريخ بغداد ١٤/ ١٢٨، مروج الذهب ٢/ ٢٢٨.

(١) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبو الحسن الهاشمي قاضي الأمة وفارس الإسلام جاهد في الله حق جهاده، ونهض بأعباء العلم والعمل. استشهد في سابع عشر رمضان من عام أربعين وسنه ستون سنة.

انظر المزيد في: أسد الغابة ٤/ ٩١، الإصابة ٢/ ٥٠١، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣، تاريخ الخلفاء ١٦٦، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٢، =

خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. الْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. مَاتَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَبَقِيَ خُزَّانُ الْعِلْمِ. أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ. وَأَشْخَاصُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ.

وَرُبَّمَا امْتَنَعَ الإِنْسَانُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ لِكِبَرِ سِنِّهِ وَاسْتِحْيَائِهِ مِنْ تَقْصِيرِهِ فِي صِغَرِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ فِي كِبَرِهِ. فَرَضِيَ بِالْجَهْلِ أَنْ يَكُونَ مَوْسُومًا بِهِ وَآثَرَهُ عَلَى الْعِلْمِ أَنْ يَصِيرَ مُبْتَدِئًا بِهِ. وَهَذَا مِنْ خَدَاعِ الْجَهْلِ وَغُرُورِ الْكَسَلِ لأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا كَانَ فَضِيلَةً فَرَغْبَةُ ذَوِي الأَسْنَانِ فِيهِ أَوْلَى وَالابْتِدَاءُ بِالْفَضِيلَةِ وَلأَنْ يَكُونَ شَيْخًا مُتَعَلِّمًا أَوْلَى مِنْ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا جَاهِلاً.

وَرُبَّمَا امْتَنَعَ أَيْضًا مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ لِتَعَذُّرِ الْمَادَّةِ وَشُغْلِهِ اكْتِسَابُهَا عَنِ الْتِمَاسِ الْعِلْمِ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ أَعْذَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَعَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلاَّ عِنْدَ ذِي شَرَهٍ وَعَيْبٍ وَشَهْوَةٍ مُسْتَعْبِدَةٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ إِلَى الْعِلْمِ حَظًّا مِنْ زَمَانِهِ فَلَيْسَ كُلُّ الزَّمَانِ زَمَانَ اكْتِسَابٍ وَلاَبُدَّ لِلْمُكْتَسِبِ مِنْ أَوْقَاتِ اسْتِرَاحَةٍ وَأَيَّامِ عُطْلَةٍ وَمَنْ صَرَفَ كُلَّ نَفْسِهِ إِلَى الْكَسْبِ حَتَّى لَمْ يَتْرُكْ لَهَا فَرَاغًا إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ مِنْ عَبِيدِ الدُّنْيَا وَأَسْرَاءِ الْحِرْصِ.

وَرُبَّمَا مَنَعَهُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ مَا يَظُنُّهُ مِنْ صُعُوبَتِهِ وَبُعْدِ غَايَتِهِ

= شذرات الذهب ١/ ٤٩، طبقات الفقهاء ٤١، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٤٦، طبقات القراء للذهبى ١/ ٣٠، العبر ١/ ٤٦، مروج الذهب ٢/ ٣٥٨، النجوم الزاهرة ١/ ١١٩.

وَيَخْشَى مِنْ قِلَّةِ ذِهْنِهِ وَبُعْدِ فِطْنَتِهِ وَهذَا الظَّنُّ اعْتِذَارُ ذَوِى النَّقْصِ وَخِيفَةُ أَهْلِ الْعَجْزِ لأَنَّ الإِخْبَارَ قَبْلَ الاخْتِبَارِ جَهْلٌ وَالْخَشْيَةَ قَبْلَ الابْتِلاءِ عَجْزٌ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

لاَ تَكُونَنَّ لِلأُمُورِ هَبُوبًا فَإِلَى خَيْبَةٍ بَصِيرُ الْهَبُوبُ

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ كَمْ مِنْ ذَلِيلٍ أَعَزَّهُ عِلْمُهُ. وَمِنْ عَزِيزٍ أَذَلَّهُ جَهْلُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لِبَنِيهِ: يَا بَنِيَّ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ لَمْ تَنَالُوا بِهِ مِنَ الدُّنْيَا حَظًا فَلأَنْ يُذَمَّ الزَّمَانُ لَكُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُذَمَّ الزَّمَانُ بِكُمْ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ زَهِدَ الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رَاغِبًا. وَلِمَنْ رَغِبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ طَالِبًا. وَلِمَنْ طَلَبَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مُسْتَكْثِرًا. وَلِمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ بِهِ عَامِلاً. وَأَنْ لاَ يَطْلُبَ لِتَرْكِهِ احْتِجَاجًا وَلاَ لِلتَّقْصِيرِ فِيهِ عُذْرًا. وَلاَ يُسَوِّفَ نَفْسَهُ بِالْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ وَيُمَنِّيهَا بِانْقِطَاعِ الأَشْغَالِ الْمُتَّصِلَةِ فَإِنَّ لِكُلِّي وَقْتٍ شُغْلاً.

وَلِكُلِّ زَمَانٍ عُذْرًا. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا
وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَرَ لاَ تَنْقَضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ
وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

وَأَنْ يَقْصِدَ طَلَبَ الْعِلْمِ وَاثِقًا بِتَيْسِيرِ اللهِ قَاصِدًا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ. وَهُوَ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

الْفصلُ الثَّانِى
فِيمَا يَنْبَغِى لِطَالِبِ الْعِلْمِ

يَنْبَغِى لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ لاَ يَنِىَ فِى طَلَبِهِ. وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ بِهِ. فَرُبَّمَا شَحَّ الزَّمَانُ بِمَا سَمَحَ. وضَنَّ بِمَا مَنَحَ. وَيَبْتَدِىءَ مِنَ الْعِلْمِ بِأَوَّلِهِ. وَيَأْتِيَهُ مِنْ مَدْخَلِهِ. وَلاَ يَتَشَاغَلَ بِطَلَبِ مَا لاَ يَضُرُّهُ جَهْلُهُ وَيَمْتَعَهُ ذلِكَ مِنْ إِدْرَاكِ مَا لاَ يَسَعُهُ جَهْلُهُ. فَإِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ فُضُولاً مُذْهِلَةً. وَشُذُورًا مُشْغِلَةً. إِنْ صَرَفَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ قَطَعَتْهُ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ[1] الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ أَحْسَنَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ بِتَرْكِ مَا لاَ يَعْنِيكَ. تُدْرِكُ مَا يُغْنِيكَ. وَلاَ يَنْبَغِى أَنْ يَدْعُوَهُ ذلِكَ إِلَى تَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ إِشْعَارًا لِنَفْسِهِ أَنَّ ذلِكَ مِنْ فُضُولِ عِلْمِهِ وَإِعْذَارًا لَهَا فِى تَرْكِ

---

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو العباس الهاشمى الإمام البحر عالم العصر ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، دعا له النبى صلى الله عليه وسلم أن يفقهه الله فى الدين ويعلمه التأويل. توفى ابن عباس بالطائف سنة ٦٨ هـ

انظر المزيد فى: أسد الغابة ٣/ ٢٩٠، الإصابة ١/ ٣٢٢، تاريخ بغداد ١/ ١٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٤٠، خلاصة تذهيب الكمال ١٧٢، شذرات الذهب ١/ ٧٥، طبقات الفقهاء ٤٨، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٢٥، طبقات القراء للذهبى ١/ ٤١، العبر ١/ ٧٦، النجوم الزاهرة ١/ ١٨٢، نكت الهميان ١٨٠.

الاشْتِغَالِ بِهِ فَإِنَّ ذلكَ مَطِيَّةُ النَّوْكَى وَعُذْرُ الْمُقَصِّرِينَ. وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تَسَهَّلَ وَتَرَكَ مِنْهُ مَا تَعَذَّرَ كَانَ كَالْقَنَّاصِ إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الصَّيْدُ تَرَكَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلا خَائِبًا إِذْ لَيْسَ يَرَى الصَّيْدَ إِلا مُمْتَنِعًا كَذلكَ الْعِلْمُ كُلُّهُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ جَهِلَهُ سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ. لأَنَّ مَعَانِيَهُ الَّتِي يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا مُسْتَوْدَعَةٌ فِي كَلَامٍ مُتَرْجِمٍ عَنْهَا وَكُلُّ كَلَامٍ مُسْتَعْمَلٍ فَهُوَ يَجْمَعُ لَفْظًا مَسْمُوعًا وَمَعْنًى مَفْهُومًا فَاللَّفْظُ كَلَامٌ يُعْقَلُ بِالسَّمْعِ وَالْمَعْنَى تَحْتَ اللَّفْظِ يُفْهَمُ بِالْقَلْبِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعُلُومُ مَطَالِعُهَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ. قَلْبٍ مُفَكِّرٍ. وَلِسَانٍ مُعَبِّرٍ. وَبَيَانٍ مُصَوِّرٍ. فَمَنْ عَقَلَ الْكَلَامَ بِسَمْعِهِ فَهِمَ مَعَانِيَهُ بِقَلْبِهِ وَمَنْ فَهِمَ الْمَعَانِيَ سَقَطَ عَنْهُ كُلْفَةُ اسْتِخْرَاجِهَا وَبَقِيَ عَلَيْهِ مُعَانَاةُ حِفْظِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا لأَنَّ الْمَعَانِيَ شَوَارِدُ تَضِلُّ بِالإِغْفَالِ. وَالْعُلُومُ وَحْشِيَّةٌ تَنْفِرُ بِالإِرْسَالِ. فَإِذَا حَفِظَهَا بَعْدَ الْفَهْمِ أَنِسَتْ. وَإِذَا ذَكَرَهَا بَعْدَ الأُنْسِ رَسَتْ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَنْ أَكْثَرَ الْمُذَاكَرَةَ بِالْعِلْمِ لَمْ يَنْسَ مَا عَلِمَ وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا لَمْ يُذَاكِرْ ذُو الْعُلُومِ بِعِلْمِهِ
وَلَمْ يَسْتَفِدْ عِلْمًا نَسِيَ مَا تَعَلَّمَا
فَكَمْ جَامِعٍ لِلْكُتْبِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
يَزِيدُ مَعَ الأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَى

وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِي مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ السَّبَبِ الْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ الْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ الأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يُوصَلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ ذلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي الْكَلَامِ الْمُتَرْجَمِ عَنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي الْمَعْنَى الْمُسْتَودَعِ فِيهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي السَّامِعِ الْمُسْتَخْرِجِ فَإِنْ كَانَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي الْكَلَامِ الْمُتَرْجَمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ.

أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى فَيَصِيرُ تَقْصِيرُ اللَّفْظِ عَنْ ذلِكَ الْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذلِكَ الْمَعْنَى وَهذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ. إِمَّا مِنْ حَصَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ مَهْمِهِ.

الْحَالُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى فَتَصِيرُ الزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ إِمَّا مِنْ هَذَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ.

وَالْحَالُ الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا الْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا السَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهُ.

وَأَمَّا تَقْصِيرُ اللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ الأَسْبَابِ الْخَاصَّةِ دُونَ الْعَامَّةِ لأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ الْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ. فَإِنْ عَدَلْتَ عَنِ الْكَلَامِ الْمُقَصِّرِ إِلَى الْكَلَامِ الْمُسْتَوفِي وَعَنِ الزَّائِدِ إِلَى

الْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ. وإِنْ أَقَمْتَ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةِ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لَحِمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَانْظُرْ فِي سَبَبِ الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصِيرِ. فَإِنْ كَانَ التَّقْصِيرُ لَحِصَرٍ وَالزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَمُ اسْتِخْرَاجُ الْمَعْنَى مِنْهُ لأَنَّ مَا لَهُ مِنَ الْكَلاَمِ مَحْصُولٌ لاَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُخْتَلُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ الصَّحِيحِ وَفِي الأَكْثَرِ عَلَى الأَقَلِّ دَلِيلٌ. وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى لِسُوءِ ظَنِّ الْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ السَّامِعِ كَانَ اسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ. وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ الْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ الأُمُورِ حَالاً وَأَبْعَدُهَا اسْتِخْرَاجًا. لأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مَكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ. إِلاَّ أَنْ تَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى اسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَاسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونَ فَضِيلَةُ الاسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ التَّقَدُّمِ لَهُ. فَهذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْكَلاَمِ مِنَ الأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ.

وَأَمَّا الْمَانِعُ مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ فَهُوَ النِّسْيَانُ الْحَادِثُ عَنْ غَفْلَةِ التَّقْصِيرِ وَإِهْمَالِ التَّوَانِي. فَيَنْبَغِي لِمَنْ بُلِيَ بِهِ أَنْ يَسْتَدْرِكَ تَقْصِيرَهُ بِكَثْرَةِ الدَّرْسِ وَيُوقِظَ غَفْلَتَهُ بِإِدَامَةِ النَّظَرِ. فَقَدْ قِيلَ لاَ يُدْرِكُ الْعِلْمَ مَنْ لاَ يُطِيلُ دَرْسَهُ. وَيَكُدُّ نَفْسَهُ. وَكَثْرَةُ الدَّرْسِ كَدٌّ لاَ يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ مَنْ يَرَى الْعِلْمَ مَغْنَمًا. وَالْجَهَالَةَ مَغْرَمًا. فَيَحْتَمِلُ تَعَبَ الدَّرْسِ لِيُدْرِكَ رَاحَةَ الْعِلْمِ وَيَنْفِيَ عَنْهُ مَعَرَّةَ الْجَهْلِ. فَإِنَّ نَبْلَ

الْعَظِيـم بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَعَلَـى قَدْرِ الرَّغْبَةِ تَكُونُ الْمَطَالِبُ وَبِحَسَـبِ الرَّاحَـةِ يَكُونُ التَّعَبُ. وَقَدْ قِيلَ طَلَبُ الرَّاحَةِ. قِلَّةُ الاسْـتِراحَةِ. وَرُبَّمَا اسْتَثْقَلَ الْمُتَعَلِّمُ الدَّرْسَ وَالْحِفْظَ وَاتُّكَلَ بَعْدَ فَهمُ الْمَعَانِي عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْكُتُبِ وَالْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ فَلاَ يَكُونُ إِلاَّ كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ الامْتِنَاعِ مِنْهُ فَلاَ تُعْقِبُهُ الثِّقَةُ إِلاَّ خَجَلاً وَالتَّفْرِيطُ إِلاَّ نَدَمًا. وَهذِه حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلاَثَةِ أَشْـيَاءَ. إِمَّا الضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ الْحِفْـظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ الأَمَلِ فِي التَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَـاطِهِ وَفَسَـادُ الرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِـهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ الضَّجُـورَ خَائِبٌ وَأَنَّ الطُّولَ الأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ الْفَاسِـدَ الرَّأْيِ مُصَابٌ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ فَشـى أَمْثَالِهَـا حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ. خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فَشِي كُتُبِكَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ[1]:

---

(١) هو الإمام الشافعي رضى الله عنه أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شـافع بن السـائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هشـام بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي المكي نزيل مصر، إمام الأئمة وقدوة الأمة. ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين. روى عن عمه محمد بن على وأبى أسامة وسـعيد بن سالم القداح وابن عيينة ومالك وابن علية وابن أبى فديك وخلق. وعنه أبنه أبو عثمان محمد والإمام أحمد بن حنبل وأبو ثور وأبو عبيد القاسم وأبو الطاهر ابن السـرح والمزنى وحرملة بن يحيى والحسـن بن محمـد الزعفرانى والربيع بن سليمان المرادى والربيع بن سليمان الجيزى وأبو الوليد المكى وأبو يعقوب البويطى ويونس بن عبد الأعلى وخلق كثير. =

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءُلَهُ لاَ بَطْنُ صُنْدُوق[1]

= وقال أحمد: إن الله تعالى يقيض للناس فى رأس كل مائة من يعلمهم السنن، وينفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب، فنظرنا فإذا فى رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفى رأس المائتين الشافعى. وقال إسماعيل بن يحيى سمعت الشافعى يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر. وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعى يفتى وله خمس عشرة سنة وكان يحيى الليل إلى أن مات.

وقال أبو ثور: كتب عبد الرحمن بن مهدى إلى الشافعى وهو شاب أن يضع له كتابًا فيه معانى القرآن، ويجمع قول الأحبار فيه حجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب "الرسالة". قال ابن مهدى: ما أصلى صلاة إلا وأنا أدعو للشافعى فيها. وقال هارون بن سعيد الأيلى: لو أن الشافعى ناظر على هذا العمود الذى هو من حجارة أنه من خشب لغلب، لاقتداره على المناظرة.

وكان الحميدى يقول: حدثنا سيد الفقهاء الشافعى. مات سنة ٢٠٤ هـ

انظر المزيد فى: إرشاد الأريب ٦/ ٣٦٧، الانس الجليل ١/ ٢٩٤، البداية والنهاية ١٠/ ٢٥١، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٥، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦١، ترتيب المدارك ٢/ ٣٨٢، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٤٤، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣، حلية الأولياء ٩/ ٦٣، خلاصة تذهيب الكمال ٢٧٧، الديباج المذهب ٢٢٧، الرسالة المستطرفة ١٧، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٩٥، طبقات المفسرين للداودى ٣/ ٩٨، طبقات النحاة لابن قاضى شهبة ١/ ٢١، طبقات ابن هداية الله ١١، العبر ١/ ٣٤٣، الفهرست ٢٠٩، اللباب ٢/ ٥، مرآة الحنان ٢/ ١٣، النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦، الوافى بالوفيات ٢/ ١٧١، وفيات الأعيان ١/ ٤٤٧.

(١) ينفعنى فى أدب الدنيا والدين ومنهاج اليقين يتبعنى. يممت: قصدت =

إنْ كُنْتُ فِـى الْبَيْتِ كَـانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِى
أو كُنْتُ فِى السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِـى السُّوقِ

وَرُبَّمَا اعْتَنَى الْمُتَعَلِّمُ بِالْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلاَ فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًـا لأَلْفَاظِ الْمَعَانِى قَيِّمًا بِتِلاَوَتِهَا وَهُوَ لاَ يَتَصَوَّرُهَا وَلاَ يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَـا. يَرْوِى بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَـنْ خُبْرَةٍ. وَرُبَّمَا اعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ الْعِلْمِ فِى كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا اسْـتَقَرَّ فشى ذِهْنِـهِ. وَهذَا خَطَاءٌ مِنْهُ لأَنَّ الشَّـكْلَ مُعْتَرِضٌ وَالنِّسْـيَانَ طَارِقٌ. وَقَـالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إِنَّ هذِهِ الآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ عَقْلِ الأَذْهَانِ فَاجْعَلُوا الْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً وَالأَقْلاَمَ لَهَا رِعَاةً.

وَأَمَّا الشُّـرُوطُ الَّتِـى يَتَوَفَّرُ بِهَا عِلْـمُ الطَّالِـبِ. وَيَنْتَهِى مَعَهَا كَمَالُ الرَّاغِـبِ. مَعَ مَا يُلاَحَظُ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ وَيُمَدُّ بِهِ مِنَ الْمَعُونَةِ فَتِسْعَةُ شُرُوطٍ.

أَحَدُهَا: الْعَقْلُ الَّذِى يُدْرِكُ بِهِ حَقَائِقَ الأُمُورِ.

وَالثَّانِى: الْفِطْنَةُ الَّتِى يَتَصَوَّرُ بِهَا غَوَامِضَ الْعُلُومِ.

وَالثَّالِثُ: الذَّكَاءُ الَّذِى يَسْتَقِرُّ بِهِ حِفْظُ مَا تَصَوَّرَهُ وَفَهْمُ مَا عَلِمَهُ.

وَالرَّابِعُ: الشَّهْوَةُ الَّتِى يَدُومُ بِهَا الطَّلَبُ وَلاَ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَلَلُ.

وَالْخَامِسُ: الأَكْتِفَاءُ بِمَادَّةٍ تُغْنِيهِ عَنْ كُلَفِ الطَّلَبِ.

وَالسَّادِسُ: الْفَرَاغُ الَّذِى يَكُونُ مَعَهُ التَّوَفُّرُ وَيَحْصُلُ بِهِ الاِسْتِكْثَارُ.

= المقصود أنه يحفظ العلم فى ذهنه وقلبه ولا يحتاج إلى استخدام الكتب.

وَالسَّابِعُ : عَدَمُ الْقَوَاطِعِ الْمُذْهِلَةِ مِنْ هُمُومٍ وَأَمْرَاضٍ.

وَالثَّامِنُ : طُولُ الْعُمْرِ وَاتِّسَاعُ الْمُدَّةِ لِيَنْتَهِيَ بِالاِسْتِكْثَارِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.

وَالتَّاسِعُ : الظَّفَرُ بِعَالِمٍ سَمْحٍ بِعِلْمِهِ مُتَأَنٍّ فِي تَعْلِيمِهِ. فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هذِهِ الشُّرُوطَ التِّسْعَةَ فَهُوَ أَسْعَدُ طَالِبٍ وَأَنْجَحُ مُتَعَلِّمٍ. فَاحْفَظْ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

الْفصَلُ الثَّالِثْ

فِى أَوَائِلِ الْعِلْمِ وَمَدَاخِلِهِ

وَاعْلَمْ أَنْ لِلْعُلُوم أَوَائِـلَ تُؤَدِّي إِلَى أَوَاخِرِهَا وَمَدَاخِلَ تُفْضِى إِلَى حَقَائِقِهَا. فَلْيَبْتَـدِىءْ طَالِبُ الْعِلْمِ بِأَوَائِلِهَـا لِيَنْتَهِىَ إِلَى أَوَاخِرِهَا وَبِمَدَاخِلِهَـا لِيُفْضِىَ إِلَى حَقَائِقِهَا. وَلاَ يَطْلُـبِ الآخِرَ قَبْلَ الأَوَّلِ. وَلاَ الْحَقِيقَةَ قَبْلَ الْمَدْخَلِ. فَلاَ يُدْرِكَ الآخِرَ وَلاَ يَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ لأَنَّ الْبِنَاءَ عَلَى غَيْرِ أُسٍّ لاَ يُبْنَى. وَالثَّمَرَ مِنْ غَيْرِ غَرْسٍ لاَ يَجْنَى.

(من كتاب أدب الدنيا والدين)

الْفصلُ الرَّابعُ

فبِمَا يَجِبُ عَلَى الْمُعَلِّم وَفِى وَجْهِ الصَّوابِ فِى تَعْلِيمِ الْعُلُومِ وَطرِيقِ إِفَادَتِهِ

إِعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى التَّدرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلاً قَلِيلاً يُلْقِى عَلَيْهِ أَوَّلاً مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِىَ أُصُولُ ذلِكَ الْبَابِ وَيُقَرِّبُ لَهُ فِى شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الإِجْمَالِ وَيُرَاعِى فِى ذلِكَ قُوَّةَ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِىَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ وَعِنْدَ ذلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِى ذلِكَ الْعِلْمِ إِلاَّ أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ. ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِى التَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِى الشَّرْحَ الْبَيَانِى وَيَخْرُجُ عَنْ الإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلاَفِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِىَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَيَا فَلاَ يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلاَ مُهِمًّا وَلاَ مُغْلَقًا إِلاَّ وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ. هذَا وَجْهُ التَّعْلِيمِ الْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِى ثَلاَثِ تَكْرَارَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِى أَقَلَّ مِنْ ذلِكَ بِحَسَبِ ما يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ. وَقَدْ

شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُعَلِّمِينَ لِهذَا الْعَهْدِ الَّذِى ادْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ التَّعْلِيمِ وَإِفَادَتِهِ وَيُحْضِرُونَ الْمُتَعَلِّمَ فِى أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ الْمَسَائِلَ الْمُقْفَلَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذِهْنِهِ فِى حَلِّهَا وَيَحْسَبُونَ ذلِكَ مَرَانَةً عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ وَعْىَ ذلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلُطُونَ عَلَيْهِ لِفَهْمِهَا. فَإِنَّ قَبُولَ الْعِلْمِ وَالاِسْتِعْدَادَاتِ لِفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِيجًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ أَوَّلَ الأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلاَّ فِى الأَقَلِّ وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالإِجْمَالِ وَبِالأَمْثَالِ الْحِسِّيَّةِ ثُمَّ لاَ يَزَالُ الاِسْتِعْدَادُ فِيهِ يَتَدَرَّجُ قَلِيلاً قَلِيلاً بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ ذلِكَ الْفَنِّ وَتَكْرَارِهَا عَلَيْهِ وَالاِنْتِقَالِ فِيهَا مِنَ التَّقْرِيبِ إِلَى الاِسْتِيعَابِ الَّذِى فَوْقَهُ حَتَّى تَتِمَّ الْمَلَكَةُ فِى الاِسْتِعْدَادِ ثُمَّ فِى التَّحْصِيلِ وَيُحِيطَ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِى الْبَدَاءَاتِ وَهُوَ حِينَئِذٍ عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْىِ وَبَعِيدٌ عَنِ الاِسْتِعْدَادِ لَهُ كَلَّ ذِهْنُهُ عَنْهَا وَحَسِبَ ذلِكَ مِنْ صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِى نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَانْخَرَفَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِى هِجْرَانِهِ وَإِنَّمَا أَتَى ذلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ. وَلاَ يَنْبَغِى لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِى أَكَبَّ عَلَى التَّعَلُّمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُنْتَهِيًا وَلاَ يَخْلُطُ مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَعِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحَصِّلَ أَغْرَاضَهُ وَيَسْتَوْلِىَ مِنْهُ عَلَى مَلَكَةٍ بِهَا يَنْفُذُ

فِي غَيْرِهِ ولأَنَّ الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَّلَ مَلَكَةَ مَا فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ اسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنُّهُوضِ إِلَى مَا فَوْقُ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ. وَإِذَا خُلِطَ عَلَيْهِ الأَمْرُ عَجَزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ الْكَلاَلُ وَانْطَمَسَ فِكْرُهُ وَيَئِسَ مِنَ التَّحْصِيلِ وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ. وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَكَذلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لاَ يُطَوِّلَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْمَجَالِسِ وَتَقْطِيعِ مَا بَيْنَهَا لأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النِّسْيَانِ وَانْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولُ الْمَلَكَةِ بِتَفْرِيقِهَا وَإِذَا كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الْفِكْرَةِ مُجَانِيَةً لِلنِّسْيَانِ كَانَتِ الْمَلَكَةُ أَيْسَرَ حُصُولاً وَأَحْكَمَ ارْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صَبْغَةً لأَنَّ الْمَلَكَاتِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتَتَابُعِ الْفِعْلِ وَتَكْرَارِهِ وَإِذَا تُنُوسِيَ الْفِعْلُ تُنُوسِيَتِ الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ وَاللهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. وَمِنَ الْمَذَاهِبِ الْحَمِيدَةِ وَالطُّرُقِ الْوَاجِبَةِ فِي التَّعْلِيمِ أَنْ لاَ يُخْلَطَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَانْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفَهُّمِ الآخَرِ فَيَسْتَغْلِقَانِ مَعًا وَيَسْتَصْعِبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَيْبَةِ. وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِتَعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَانَ ذلِكَ أَجْدَرَ لِتَحْصِيلِهِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

(عن ابن خلدون)

الْفصلُ الْخَامِسُ

فِى استعمال العلم

قَـالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : ثَمَـرَةُ الْعِلْمِ أَنْ يُعْمَلَ بِـهِ. وَثَمَرَةُ الْعَمَلِ أَنْ يُؤْجَرَ عَلَيْهِ. وَقِيلَ مِنْ تَمَامِ الْعِلْمِ اسـتِعْمَالُهُ. وَمِنْ تَمَامِ الْعَمَلِ اسْتِقْلَالُهُ فَمَنِ اسْتَعْمَلَ عِلْمَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ رَشَادٍ. وَمَنِ اسْتَقَلَّ عَمَلَهُ لَمْ يُقْصِرْ عَنْ مُرَادٍ. وَقَالَ أَبُو تَمَّام الطَّائِىُّ[1].

وَلَـمْ يَحْمَدُوا مِنْ عَالِمٍ غَيْرِ عَامِلٍ.
خَلاَقًا وَلاَ مِنْ عَامِـلٍ غَيْـرِ عَالِـمِ

---

(١) هـو حبيب بن أوس بـن الحارث الطائى أبو تمام الشـاعر الأديب. أحد أمراء البيان. ولد فى جاسم "من قرى حوران بسورية" ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شـعراء وقته، فأقام فى العراق ثم ولى بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفى بها سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م وكان مولده سنة ١٨٨ هـ/ ٨٠٤ م كان أسمر طويـلاً، فصيحًا، حلو الكلام، فيه تمتمة بسـيرة، يحفظ أربعة عشـر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع فى شـعره قوة وجزالـة. واختلف فـى التفضيل بينه وبين المتنبى والبحـترى. له تصانيف منها "فحول الشـعراء" و "ديوان الحماسـة" و "مختار أشعار القبائل" وهو أصغر من ديوان الحماسـة و "نقائض جرير والأخطل" و "الوحشيات" وهو ديوان الحماسة الصغرى و "ديوان شعره".

انظـر المزيد فى: وفيات الأعيـان ١/ ١٢١، نزهة الألبـاء ٤٥، معاهد التنصيص ١/٣٨، تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٨، شذرات الذهب ٢/ ٧٢، الذريعة ١/ ر٣١٤ – ٣١٥.

رَأَوْا طُرُقَاتِ الْعَجْزِ عُوجًا فَظِيعَةً

وَأَفْظَعُ عَجْزٍ عِنْدَهُمْ عَجْزُ حَـازِمِ[1]

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ مَنْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ.

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ أَيْضًا النَّارُ لاَ يَنْقُصُهَا مَا أُخِذَ مِنْهَا وَلَكِنْ يُخْمِدُهَـا أَنْ لاَ تَجِـدَ حَطَبًا. كَذلِكَ الْعِلْمُ لاَ يُفْنِيهِ الاقْتِبَاسُ وَلَكِنَّ فَقْدَ الْحَامِلِينَ لَهُ سَبَبُ عَدَمِهِ: فَإِيَّاكَ وَالْبُخْلَ بِمَا تَعْلَمُ.

---

(١) ورد البيتين في الديوان ٣/ ٢٥٩.

الْفصلُ السَّادِسُ

فيما يجبُ أن يكونَ عليهِ العلماءُ من الأخلاق الجديرةِ بهم

أَمَّـا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُـونَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ مِنَ الأَخْـلاَقِ الَّتِي بِهِمُ أَلْيَقُ وَلَهُمْ أَلْزَمُ فَالتَّوَاضُعُ وَمُجَانَبَةُ الْعُجْبِ. لأَنَّ التَّوَاضُعَ عَطُوفٌ وَالْعُجْبَ مُنَفِّرٌ وَهُوَ بِكُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ وَبِالْعُلَمَاءِ أَقْبَحُ لأَنَّ النَّاسَ بِهِمْ يَقْتَـدُونَ. وَكَثِيرًا مَا يُدَاخِلُهُمُ الإِعْجَابُ لِتَوَجُّدِهِمْ بِفَضِلَةِ الْعِلْمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظَـرِ وَعَمِلُوا بِمُوجَبِ الْعِلْمِ لَكَانَ التَّوَاضُعُ بِهِمْ أَوْلَى وَمُجَانَبَةُ الْعُجْبِ بِهِمْ أَحْرَى لأَنَّ الْعُجْبَ يَقْصُ يُنَافِي الْفَضْلَ وَيَأْكُلُ الْحَسَـنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ فَلاَ يَفِي مَا أَدْرَكُوهُ مِنْ فَضِلَةِ الْعِلْمِ بِمَا لَحِقَهُمْ مِنْ نَقْصِ الْعُجْبِ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ[1]

---

(١) هـو أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو حفص العدوى الفاروق وزير رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، ومن أيد الله به الإسـلام، وفتح به الأمصار وهو الصادق المحدث الملهم، وهو الذى سـن للمحدثين التثبيت فى النقل، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد إذا ارتاب. استشـهد أمير المؤمنين فى أواخر ذى الحجة من سـنة ثلاث وعشرين وعاش نحوًا من ستين سنة.

انظر المزيد فى: أسد الغابة ٤/ ١٤٥، الإصابة ٢/ ٥١١، تاريخ الخلفاء ١٠٨، تذكـرة الحفاظ ١/ ٥، خلاصـة تذهيب الكمال ٢٣٩، شـذرات الذهب ١/ ٣٣، طبقات الفقهاء ٣٨، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٩١، العبر ١/ ٢٧، مروج =

تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَهُ وَلا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلاَ يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ وَقَالَ الشَّعبيُّ[1] الْعِلْمُ ثَلاثَةُ أَشْبَارٍ فَمَنْ نَالَ مِنْهُ شِبْرًا شَمَخَ بِأَنْفِهِ وَظَنَّ أَنَّهُ نَالَهُ. وَمَنْ نَالَ الشِّبْرَ الثَّانِيَ صَغُرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَنَلْهُ. وَأَمَّا الشِّبْرُ الثَّالِثُ فَهَيْهَاتِ لاَ يَنَالُهُ أَحَدٌ أَبَدًا.

وَمِنْ أَوْضَحِ ذلِكَ بَيَانًا اسْتِعَاذَةُ الْجَاحِظِ[2] فِي كِتَابِ الْبَيَانِ

=الذهب ٢/ ٣١٢، النجوم الزاهرة ١/ ٧٨.

(١) هو الشعبى عامر بن شراحيل أبو عمرو الكوفى. ولد لبست مضت من خلافة عمر على المشهور، وأدرك خمسمائة من الصحابة، وقال: ما كتبت سوداء فى بيضاء قط، ولا حدثنى رجل بحديث فاحببت أن يعيده على، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته. وقال أبو مخلد: ما رأيت أفقه من الشعبى. وقال عبد الملك ابن عمير: مَرَّ ابن عمر على الشعبى وهو يحدث بالمغازى فقال: لقد شهدت القوم فلهو أحفظ لها وأعلم بها. مات سنة ١٠٣ هـ أو ١٠٤ هـ أو١٠٧ هـ أو ١١٠ هـ والله أعلم.

انظر المزيد فى: تاريخ بغداد ١٢/ ٢٢٩، تذكرة الحفاظ ١/ ٧٩، تهذيب التهذيب ٥/ ٦٥، حلية الأولياء ٤/ ٣١٠، خلاصة تذهيب الكمال ١٥٥، شذرات الذهب ١/ ١٢٦، طبقات ابن سعد ٦/ ١٧١، طبقات الفقهاء ٨١، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٥٠، العبر ١/ ١٢٧، اللباب ٢/ ٢١، النجوم الزاهرة ١/ ٢٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤.

(٢) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء الليثى أبو عثمان الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة مولده=

حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتنَةِ الْعَمَلِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّكَلُّفِ لِمَنَا لاَ نُحْسِنُ كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعُجْبِ بِمَا نُحْسِنُ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ السُّلاَطَةِ وَالْهَذَرِ كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْعِيِّ وَالْحَصَرِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ لاَ تَتَكَلَّمَ فِيمَا لاَ تَعْلَمُ بِكلاَمِ مَنْ يَعْلَمُ فَحَسْبُكَ جَهْلاً مِنْ عَقْلِكَ أَنْ

= سنة ١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م ووفاته بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م فلج فى آخر عمره. وكان مشوّه الخلقه. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. لـه تصانيف كثيرة. منها "الحيوان" أربعة مجلـدات و "البيان والتبيين" و "سحر البيان" و "التاج" ويسمى "أخلاق الملوك" و "البخلاء" و "المحاسن والأضداد" و "التبصير بالتجارة" رسالة نشرت فى مجلة المجتمع العلمى العربى. و "مجموع رسائل" اشتمل على أربع هى: المعاد والمعاش وكتمام السر وحفظ اللسان، والجد والهزل والحسد.والعداوة. وله "ذم القواد" رسالة صغيرة و "تنبيه الملوك" فى ٤٤٠ ورقة و "الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير" و "فضائل الأتراك" و "العرافة والفراسة" و "الربيع والخريف" و "الحنين إلى الأوطان" رسالة و "النبى والمتنبى" و "مسائل القرآن" و "العبر والاعتبار فى النظر فى معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع" و "فصيلة المعتزلة" و "صياغة الكلام" و "الأصنام" و "كتاب المعلمين" و "الجوارى" و "النساء" و "البلدان" و "جمهرة الملوك" و "كتاب المغنين" و "الاستبداد والمشاورة فى الحرب".

انظر المزيد فى: إرشاد الأريب ٦/ ٥٦ – ٨٠، الوفيات ١/ ٣٨٨، أمراء البيان ٣١١ – ٤٨٧، آداب اللغة ٢/ ١٦٧، لسان الميزان ٤/ ٣٥٥، أمالى المرتضى ١/ ١٣٨، نزهة الألبأ ٢٥٤.

تَنْطِقَ بِمَا لا تَفْهَمُ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ زُرَارَةُ بْنُ زَيْدٍ[1] حَيْثُ يَقُولُ:

إِذَا مَا انْتَهَى عِلْمِي تَنَاهَيْتُ عِنْدَهُ
أَطَالَ فَأَمْلَى أَوْ تَنَاهَى فَأَقْصَرَا
وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ فِعْلُهُ
كَفَى الْفِعْلُ عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مِنْ فَضْلِ عِلْمِكَ اسْتِقْلَالُكَ لِعِلْمِكَ وَمِنْ كَمَالِ عَقْلِكَ اسْتِظْهَارُكَ عَلَى عَقْلِكَ. وَلاَ يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَجْهَلَ مِنْ نَفْسِهِ مَبْلَغَ عِلْمِهَا وَلاَ يَتَجَاوَزَ بِهَا قَدْرَ حَقِّهَا وَلأَنْ يَكُونَ بِهَا مُقَصِّرًا فَيُذْعِنَ بِالانْقِيَادِ أَوْلَى مِنْ أَنْ يَكُونَ بِهَا مُجَاوِزًا فَيَكُفَّ عَنِ الازْدِيَادِ لأَنَّ مَنْ جَهِلَ حَالَ نَفْسِهِ كَانَ لِغَيْرِهَا أَجْهَلَ. وَقَدْ قَسَمَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ أَحْوَالَ النَّاسِ فِيمَا عَلِمُوهُ أَوْ جَهِلُوهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ مُتَقَابِلَةٍ لاَ يَخْلُوا الإِنْسَانُ مِنْهَا. فَقَالَ الرِّجَالُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ يَدْرِي وَيَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي فَذَلِكَ عَالِمٌ فَاسْأَلُوهُ. وَرَجُلٌ يَدْرِي وَلاَ يَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي فَذَلِكَ نَاسٍ فَذَكِّرُوهُ. وَرَجُلٌ لاَ يَدْرِي وَيَدْرِي أَنَّهُ لاَ يَدْرِي فَذَلِكَ مُسْتَرْشِدٌ فَأَرْشِدُوهُ وَرَجُلٌ لاَ يَدْرِي وَلاَ يَدْرِي أَنَّهُ لاَ يَدْرِي فَذَلِكَ جَاهِلٌ فَارْفُضُوهُ وَأَنْشَدَ أَبُو الْقَاسِمِ الأَمِدِيُّ[2]:

---

(١) وردت الأبيات فى الأغانى.

(٢) ورد له ذكر وترجمة فى إرشاد الأريب وبغية الوعاة وإنباه الرواة

إِذَا كُنْتَ لاَ تَـدْرِى وَلَـمْ تَـكُ بِالَّـذِى

يُسَائِلُ مَنْ يَـدْرِى فَكَيْفَ إِذَنْ تَدْرِى

(من كتاب أدب الدنيا والدين)

الْبَابُ الأَوَّلُ
وَفِيهِ عَشَرَةُ فُصُولٍ
الْفَصْلُ الأَوَّلُ
فِى أَرْكَانِ الْكِتَابَةِ

إِعْلَمْ أَنَّ أَرْكَانَ الْكِتَابَةِ الَّتِى لاَبُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا فِى كُلِّ كِتَابٍ بَلاَغِيٍّ ذِى شَأْنٍ ثَلاَثَةٌ.

الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مَطْلَعُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ حِدَّةٌ وَرَشَاقَةٌ فَإِنَّ الْكَاتِبَ مَنْ أَجَادَ الْمَطْلَعَ وَالْمَقْطَعَ. أَوْ يَكُونَ مَبْنِيًّا عَلَى مَقْصَدِ الْكِتَابِ وَلِهذا بَابٌ يُسَمَّى بَابَ الْمَبَادِىءِ والاِفْتِتَاحَاتِ[1] فَلْيُحْذَ حَذْوُهُ. وَهذا الرُّكْنُ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَاتِبُ وَالشَّاعِرُ.

الرُّكْنُ الثَّانِى: أَنْ يَكُونَ خُرُوجُ الْكَاتِبِ مِنْ مَعْنًى إِلَى مَعْنًى بِرَابِطَةٍ لِتَكُونَ رِقَابُ الْمَعَانِى آخِذًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَلاَ تَكُونَ مُقْتَضَبَةً وَلِذلِكَ بَابٌ مُفْرَدٌ أَيْضًا يُسَمَّى بَابَ التَّخَلُّصِ والإِقْتِضَابِ[2]. وَهذَا الرُّكْنُ أَيْضًا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَاتِبُ وَالشَّاعِرُ.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُ الْكِتَابِ غَيْرَ مُخْلَقَةٍ بِكَثْرَةِ

---

(١) انظر الفصل الثامن من هذا الباب.

(٢) انظر الفصل التاسع من هذا الباب.

الإسْـتِعْمَالِ. وَلاَ أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الأَلْفَاظُ الْمُسْـتَعْمَلَةُ مَسْبُوكَةَ سَبْكًا غَرِيبًا يَظُنُّ السَّـامِعُ أَنَّهَا غَيْرُ مَا فِى أَيْـدِى النَّاسِ وَهِىَ مِمَّا فِى أَيْدِى النَّاسِ. وَهُنَـاكَ مُعْتَرَكُ الْفَصَاحَةِ الَّذِى تُظْهِرُ فِيهِ الْخَوَاطِرُ بَرَاعَتَهَا وَالأَقْلاَمُ شَجَاعَتَهَا كَمَا قَالَ الْبُحْتُرِىُّ[1]:

بِاللَّفْظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِى بُعْدِهِ
عَنَّـا وَيَبْعُـدُ نَيْلُـهُ فِـى قُرْبِـهِ

وَهذَا الْمَوْضِعُ بَعِيدُ الْمَنَالِ كَثِيرُ الإِشْـكَالِ يَحْتَاجُ إِلَى لُطْفِ ذَوْقٍ وَشَـهَامَةِ خَاطِرٍ وَهُوَ شَبِيهٌ بِالشَّىْءِ الَّذِى يُقَالُ إِنَّهُ لاَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلاَ خَارِجَ الْعَالَمِ. فَلَفْظُهُ هُوَ الَّذِى يُسْـتَعْمَلُ وَلَيْسَ بِالَّذِى يُسْتَعْمَلُ أَىْ إِنَّ مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظِهِ هِىَ الْمُسْتَعْمَلَةُ الْمَأْلُوفَةُ وَلكِنَّ سَبْكَهُ وَتَرْكِيبَهُ

---

(١) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى أبو عباد البحترى، شـاعر كبير يقال لشعره "سلاسل الذهب" وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبى وأبـو تمام والبحترى، قيـل لأبى العلاء المعرى أى الثلاثة أشـعر؟ فقال: المتنبى وأبو تمام حكيمان، وإنما الشـاعر البحترى ولد بمنبج "بين حلب والفرات" سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م ورحـل إلى العراق فاتصـل بجماعة من الخلفـاء أولهم المتوكل العباسـى ثم عاد إلى الشـام وتوفى بمنبج سـنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٨ م له "ديوان شعر" وكتاب "احماسـة" على مثال حماسـة أبى تمام وللآمدى "الموازنة بين أبى تمام والبحترى".

انظـر المزيـد فى: وفيـات الأعيـان ٢٠/ ١٧٥، معاهد التنصيـص ١/ ٢٣٤، الشريشـى ١/ ٣٦، تاريـخ بغـداد ١٣/ ٤٤٦، مفتاح السـعادة ١/ ١٩٣، المنتظم ٦/ ١١، العرب والروم ٣٥٢.

هُـوَ الْغَرِيبُ الْعَجِيبُ. وَإِذَا سَمَوْتَ أَيُّهَا الْكَاتِبُ إِلَى هذِهِ الدَّرَجَةِ وَاسْتَطْعَمْتَ طَعْمَ هذَا الْكَلاَمِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ عَلِمْتَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ كَالرُّوحِ السَّاكِنَةِ فِي بَدَنِكَ الَّتِي قَالَ اللهُ فِيهَا ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥]. وَلَيْسَ كُلُّ خَاطِرٍ بِرَاقٍ إِلَى هذِهِ الدَّرَجَةِ ذلِكَ ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديـد: الآية ٢١]. وَمَعَ هذَا فَلاَ تَظُـنَّ أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي كِتَابِي أَنِّـي أَرَدْتُ بِهذَا الْقَوْلِ إِهْمَالَ جَانِبِ الْمَعَانِي بِحَيْثُ يُؤْتَى بِاللَّفْظِ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْحُسْـنِ وَالْمَلاَحَةِ وَلاَ يَكُـونُ تَحْتَهُ مِنَ الْمَعْنَى مَا يُمَاثِلُهُ وَيُسَـاوِيهِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كَذلِكَ كَانَ كَصُورَةِ حَسَنَةٍ بَدِيعَةٍ فِي حُسْـنِهَا إِلاَّ أَنَّ صَاحِبَهَا بَلِيدٌ أَبْلَهُ. وَهذَا الرُّكْنُ أَيْضًا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَاتِبُ وَالشَّاعِرُ.

(انتهى عن المثل الشائر ببعض تصرُّف)

الْفصلُ الثَّانِى

فِى أدَوَاتِ الْكِتَابَةِ

قَالَ إبْراهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّيْبَانِىُّ[1]: إنْ كَانَ لاَبُدَّ لَكَ مِنْ طَلَبِ أَدَوَاتِ الْكِتَابَةِ فَتَصَفَّحْ مِنْ رَسَائِلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَمِنْ رَسَائِلِ الْمُتَاخِّرِينَ مَا يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَمِنْ نَوَادِرِ الْكَلاَمِ مَا تَسْتَعِينُ بِهِ الأَشْعَارِ وَالأَخْبَارِ وَالسِيَرِ وَالأَسْمَاءِ مَا يَتَّسِعُ بِهِ مَنْطِقُكَ وَيَطُولُ بِهِ قَلَمُكَ. وَانْظُرْ فِى كُتُبِ الْمَقَامَاتِ وَالْخُطَبِ وَمُجَاوَبَةِ الْعَرَبِ فِى حُرُوبِهِمْ وَأَمْثَالِ الْفُرْسِ وَرَسَائِلِهِمْ وَعُهُودِهِمْ وَسِيَرِهِمْ وَوَقَائِعِهِمْ وَمَكَايِدِهِمْ فِى حُرُوبِهِمْ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ مُتَوَسِّطًا عِلْمَ النَّحوِ وَالْغَرِيبِ وَكُتُبَ السِّجِلاَّتِ وَالأَمَانَاتِ لِتَكُونَ مَاهِرًا تَنْتَزِعُ أىَ الْقُرْآنِ فِى مَوَاضِعِهَا وَاخْتِلاَفَ الأَمْثَالِ فِى أَمَاكِنِهَا وَقَرْضَ الشِّعرِ الْجَيِّدِ وَعِلْمَ الْعَرُوضِ فَإِنَّ تَضْمِينَ الْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْبَيْتِ الْغَابِرِ الْبَارِعِ

---

(١) هو إبراهيم بن محمد الشيبانى أبو اليسر ويعرف بالرياضى الكاتب، أديب أصله من بغداد، واستقر فى القيروان فترأس ديوان الإنشاء لبنى الأغلب ثم للفاطميين إلى أن توفى سنة ٢٩٨ هـ/ ٩١١ م وكان مولده سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م من كتبه "سراج الهدى" فى معانى القرآن وإعرابه، و "مسند" فى الحديث و"قطب الأدب: و "لفظ المرجان" فى الأدب.

انظر المزيد فى: شذرات الذهب ٢/ ٣٧٥.

مِمَّـا يَزِينُ كِتَابَكَ مَا لَمْ تُخَاطِـبْ خَلِيفَةً أَوْ مَلِكًا جَلِيلَ الْقَدْرِ فَإِنَّ اجْتِلاَبَ الشِّـعْرِ فِى كُتُبِ الْخُلَفَاءِ عيبٌ إلاَّ أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ هُوَ الْقَارِضَ لِلشِّعْرِ وَالصَّانِعَ لَهُ فَإِنَّ ذلِكَ يَزِيدُ فِى أُبَّهَتِهِ.

وَإِذَا احْتَجْـتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمُلُوكِ وَالْـوُزَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْخُطَبَاءِ وَالأُدَبَاءِ والشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ النَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلاًّ عَلَـى أُبَّهَتِهِ وَجَلالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَارْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَانْتِبَاهِهِ وَتَخَيَّرْ مِنَ الأَلْفَاظِ أَرْجَحَهَا لَفْظًا وَأَجْزَلَهَا وَأَشْـرَفَهَا جَوْهَرًا وَأَكْرَمَهَا حَسَـبًا وَأَلْبَقَهَا فِى مَكَانِهَا وَأَشْكَلَهَا فِى مَوْضِعِهَا فَإِنْ حَاوَلْتَ صُنْعَ رِسَالَةٍ فَزِنِ اللَّفْظَةَ قَبْلَ أَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ التَّصْرِيفِ إِذَا عَرَضَتْ وَعَابِرِ الْكَلِمَةَ بِمِعْيَارِهَا إِذَا سَنَحَتْ فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مُخْرَجُ الْـكَلاَمِ فِيهِ إِذَا كَتَبْتَ أَنَا فَاعِلٌ أَحْسَـنَ مِـنْ أَنْ تَكْتُبَ أَنَا أَفْعَلُ ومَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ اسْـتَفْعَلْتُ أَحْلَى مِنْ أَنْ تَكْتُبَ أَنَا أَفْعَلُ وَمَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ اسْـتَفْعَلْتُ أَحْلَى مِنْ فَعَلْتُ. فَأَدِرِ الْكَلاَمَ عَلَى أَعْكَانِهِ وَقَلِّبْهُ عَلَى جَمِيعِ وُجُوهِهِ فَأَىُّ لَفْظَةٍ رَأَيْتَهَا لاَ ثِقَةً بِالْـمَكَانِ الَّذِى نَدَبْتَهَـا إِلَيْهِ فَانْزِعْهَا إِلَى الْمَكَانِ الَّـذِى أَرَدْتَهَا لَهُ وَأَوْقِعْهَا فِيهِ وَلاَ تَجْعَلِ اللَّفْظَةَ قَلِقَةً فِى مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَإِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ هَجَّنْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِى حَاوَلْتَ تَحْسِينَهُ وَأَفْسَدْتَ الْمَكَانَ الَّـذِى أَرَدْتَ اصْلاَحَهُ. فَإِنَّ وَضْعَ الأَلْفَاظِ فِى غَيْرِ أَمَاكِنِهَا وَقَصْدَكَ بِهَا إِلَى غَيْرِ مَصَابِّهَا إِنَّمَا هُوَ كَتَرْفِيعِ الثَّوْبِ الَّذِى تُشَابِهُهُ

رِفَاعُهُ وَلَمْ تَتَقَارَبْ أَجْزَاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الْجِدَّةِ وَتَغَيَّرَ حُسْنُهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الْجَدِيدَ إِذَا مَا زِيدَ فِي خَلَقٍ

يُبِينُ لِلنَّاسِ أَنَّ الثَّوْبَ مَرْقُوعُ

كَذَلِكَ كُلَّمَا أَحْلَوْلَى الْكَلاَمُ وَعَذُبَ وَرَاقَ وَسَهُلَتْ مَخَارِجُه كَانَ أَسْهَلَ وَلُوجًا فِي الأَسْمَاعِ وَأَشَدَّ اتِّصَالاً بِالْقُلُوبِ وَأَخَفَّ عَلَى الأَفْوَاهِ وَلاَ سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْبَدِيعُ مُتَرْجَمًا بِلَفْظٍ مُؤْنِقٍ شَرِيفٍ وَلاَسِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْبَدِيعُ مُتَرْجَمًا بِلَفْظٍ مُؤْنِقٍ شَرِيفٍ وَمُعَايَرًا بِكَلاَمٍ عَذْبٍ لَمْ يَسِمْهُ التَّكْلِيفُ بِمِيْسَمِهِ وَلَمْ يُفْسِدْهُ التَّعْقِيدُ بِاسْتِهْلاَكِهِ.

وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ شَبَّهُوا الْمَعْنَى الْخَفِيَّ بِالرُّوحِ الْخَفِيِّ وَاللَّفْظَ الظَّاهِرَ بِالْجُثْمَانِ الظَّاهِرِ وَإِذَا لَمْ يَنْهَضْ بِالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْجَزْلِ لَفْظٌ شَرِيفٌ جَزْلٌ لَمْ تَكُنِ الْعِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلاَ النِّظَامُ مُتَّسِقًا وَتَضَاءَلَ الْمَعْنَى الْحَسَنُ تَحْتَ اللَّفْظِ الْقَبِيحِ كَتَضَاؤُلِ الْحَسْنَاءِ فِي الأَطْمَارِ الرَّثَّةِ.

(انتهى ملخصًا عن العقد الفريد)

الْفصْلُ الثَّالِثُ
فِى الصِّنَاعَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَهِىَ قِسْمَانِ
الْقِسْمُ الأَوَّلُ
فِى اللَّفْظَةِ الْمُفْرَدَةِ

إِعْلَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هذِهِ الصِّنَاعَةِ فِى تَأْلِيفِهِ إِلَى ثَلاَثَةِ أَشْيَاءَ. الأَوَّلُ مِنْهَا اخْتِيَارُ الأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ. وَحُكْمُ ذلِكَ حَكْمُ اللاَّئِ الْمُبَدَّدَةِ فَإِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ النَّظْمِ. الثَّانِى نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ أُخْتِهَا فِى الْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلاَّ يَجِىءَ الْكَلاَمُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذلِكَ حُكْمُ الْعِقْدِ الْمَنْظُومِ فِى اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا الْمُشَاكِلَةِ لَهَا لِئَلاَّ يَجِىءَ الْكَلاَمُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذلِكَ حُكْمُ الْعِقْدِ الْمَنْظُومِ فِى اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا الْمُشَاكِلَةِ لَهَا. الثَّالِثُ الْغَرَضُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذلِكَ الْكَلاَمِ عَلَى اخْتِلاَفِ أَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذلِكَ حُكْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِى يُوضَعُ فِيهِ الْعِقْدُ الْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ إِكْلِيلاً عَلَى الرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلاَدَةً فِى الْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِى الأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هذِهِ الْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْقًا فِى الأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هذِهِ الْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ الْحُسْنِ تَخُصُّهُ. فَهذِهِ ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ لاَبُدَّ لِلْخَطِيبِ وَالشَّاعِرِ مِنَ الْعِنَايَةِ

بِهَا وَهِيَ الأَصْلُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلاَمِ مِنَ النظْمِ وَالنَّثْرِ. فَالأَوَّلُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلاَمِ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ. فالأَوَّلُ وَالثَّانِي مِنْ هذِهِ الثَّلاَثَةِ الْمَذْكُورَةِ هُمَا الْمُرَادُ بِالْفَصَاحَةِ. وَالثَّلاَثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ الْمُرَادُ بِالْبَلاَغَةِ. وَهذَا الْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ الْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ الْكَلاَمِ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ فَكَيْفَ الْجُهَّالُ الَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُه. وَمَنِ الَّذِي يُؤْتِيهِ اللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى أَسْرَارِ مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ الأَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ لِلأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَنْصِفُ بِهَا وَاخْتَلَفُوا فِي ذلِكَ وَاسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذلِكَ اسْتَقْبَحَ الآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ. وَلَوْ حَقَّقُوا النَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى السِّرِّ فِي انْصِافِ بَعْضِ الأَلْفَاظِ بِالْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِالْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلاَفٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى ذلِكَ فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِي هذَا الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ الْفَصَاحَةِ[1] وَفِي الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَالإِحَاطَةِ بِهِ غِنىً عَنْ غَيْرِهِ. وَلكِنْ لاَبُدَّ أَنْ نَذْكُرَ هٰهُنَا تَفْصِيلاً لِمَا أَجْمَلْنَاهُ هُنَاكَ لأَنَّا ذَكَرْنَا فِي ذلِكَ الْفَصْلِ أَنَّ الأَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ الأَصْوَاتِ لأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَمَا اسْتَلَذَّهُ السَّمْعُ مِنْهَا فَهُوَ الْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ

(١) انظر الفصل السابع من هذا الباب.

وَنَبَـا عَنْهُ فَهُوَ الْقَبِيـحُ. وَإِذَا ثَبَتَ ذلِكَ فَلاَ حَاجَةَ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنْ تِلْـكَ الْخَصَائِصِ وَالْهَيْئَاتِ الَّتِى أَوْرَدَهَـا عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِى كُتُبِهِمْ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَذِيذًا فِى السَّـمْعِ كَانَ حَسَـنًا وَإِذَا كَانَ حَسَنًا دَخَلَتْ تِلْكَ الْخَصَائِصُ وَالْهَيْئَاتُ فِى ضِمْنِ حُسْنِهِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لأَحَدِهِمْ إِنَّ هذِهِ اللَّفْظَةَ حَسَـنَةٌ وَهذِهْ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذلِكَ وَقَالَ كُلُّ الأَلْفَاظِ حَسَـنٌ وَالْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلاَّ حَسَـنًا وَمَـنْ يَبْلُغْ جَهْلُـهُ إِلَى أَنْ لاَ يَفْرُقَ بَيْنَ لَفْظَةِ الْغُصْنِ وَلَفْظَةِ الْعُسْـلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ الإِسْـفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ الإِسْـفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ السَّيْفِ وَلَفْظَةِ الْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الأَسَدِ وَلَفْظَةِ الْفَدَوْكَسِ فَلا يَنْبَغِى أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَلاَ يُجَاوَبَ بِجَوَابٍ.

وَقَـدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِـى أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا. فَمِنْهَا أَنْ لاَ تَكُونَ الْكَلِمَةُ وَحْشِـيَّةً. وَقَدْ خَفِيَ الْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَظَنُّوهُ الْمُسْتَقْبَحَ مِنَ الأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذلِكَ بَلِ الْوَحْشِـيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَالآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ وَذلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى اسْمِ الْوَحْشِ الَّذِى يَسْكُنُ الْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنِيسٍ وَكَذلِكَ الأَلْفَاظُ الَّتِى لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَـةَ الإِسْـتِعْمَالِ. وَلَيْسَ مِنْ شَـرْطِ الْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْـتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لاَ يَأْلَفُ الإِنْسَ فَتَارَةً يَكُونُ حَسَـنًا وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا. وَعَلَى هذَا

فَإِنَّ أَحَدَ قِسْمَيِ الْوَحْشِيِّ وَهُوَ الْغَرِيبُ الْحَسَنُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّسَبِ وَالإِضَافَاتِ. وَأَمَّا الْقِسْمُ الآخَرُ مِنَ الْوَحْشِيِّ الَّذِي هُوَ قَبِيحٌ فَإِنَّ النَّاسَ فِي اسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ وَلاَ يَخْتَلِفُ فِيهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ وَلاَ قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ. وَأَحْسَنُ الأَلْفَاظِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلاً لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلاً إِلاَّ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلاَمُ عَلَى ذلِكَ فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ[1]. فَإِنَّ أَرْبَابَ الْخَطَابَةِ وَالشِّعْرِ نَظَرُوا إِلَى الأَلْفَاظِ وَنَقَّبُوا عَنْهَا ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الأَحْسَنِ مِنْهَا فَاسْتَعْمَلُوهُ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهُوَ أَيْضًا يَتَفَاوَتُ فَشَى دَرَجَاتِ حُسْنِهِ فَالأَلْفَاظُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلاَثَةَ أَقْسَامٍ قِسْمَانِ حَسَنَانِ وَقِسْمٌ قَبِيحٌ. فَالْقِسْمَانِ الْحَسَنَانِ أَحَدُهُمَا مَا تَدَاوَلَ اسْتِعْمَالَهُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ مِنَ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هذَا وَلاَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ. وَالآخَرُ مَا تَدَاوَلَ اسْتِعْمَالَهُ الأَوَّلُ دُونَ الآخِرِ وَيَخْتَلِفُ فِي اسْتِعْمَالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزَّمَنِ وَأَهْلِهِ وَهذَا هُوَ الَّذِي لاَيُعَابُ اسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَحْشِيًّا وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ. وَقَدْ تَضَمَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْهُ كَلِمَاتٍ مَعْدُودَةً وَهِيَ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا غَرِيبُ الْقُرْآنِ. وَكَذلِكَ تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مِنْهُ شَيْئًا وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ عَلَيْهِ غَرِيبُ الْحَدِيثِ.

وَلاَ يَسْبُقْ وَهْمُكَ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ غَلَطُ الطَّبْعِ وَفَجَاجَةُ الذِّهْنِ بِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ الأَلْفَاظِ

---

(١) انظر الفصل السابع من هذا الباب.

كَـذَا وَكَـذَا فَهذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَـنٌ. بَلْ يَنْبَغِـي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الَّذِى نَسْتَحْسِنُهُ هُوَ الَّذِى كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا. وَالإِسْتِعْمَالُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى الْحُسْـنِ فَإِنَّا نَحْنُ نَسْـتَعْمِلُ الآنَ مِنَ الْكَلاَمِ مَا لَيْسَ بِحَسَنٍ وَإِنَّمَا نَسْتَعْمِلُهُ لِضَرُورَةٍ فَلَيْسَ اسْتِعْمَالُ الْحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي كُلِّ الأَحْـوَالِ. وَهذَا طَرِيقٌ يَضِلُّ بِغَيْرِ الْعَارِفِ بِمَسَـالِكِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ صِنَاعَةَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَمَا تَجِدُهُ صَاحِبُهَا مِنَ الْكُلْفَةِ فِى صَوْغِ الأَلْفَاظِ وَاخْتِيَارِهَا فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ فِى أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ:

لاَ يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلاَّ مَنْ يُكَابِدُهُ

وَلاَ الصَّبَابَـةَ إِلاَّ مَـنْ يُعَانِيهَـا

وَمَعَ هذَا كَذَا وَكَذَا وَهذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ قَوْلٌ فَاسِدٌ لاَ يَصْدُرُ إِلاَّ عَنْ جَاهِلٍ فَإِنَّ اسْتِحْسَانَ الأَلْفَاظِ وَاسْتِقْبَاحَهَا لاَ يُؤْخَذُ بِالتَّقْلِيدِ مِنَ الْعَرَبِ لأَنَّهُ شَـىءٌ لَيْس لِلتَّقْلِيد فِيهِ مَجَالاٍ وَإِنَّمَا هُوَ شَىْءٌ لَهُ خَصَائِـصُ وَهَيْئَاتٌ وَعَلاَمَاتٌ إِذَا وُجِدَتْ عُلِمَ حُسْـنُهُ مِنْ قُبْحِهِ وَقَـدْ تَقَدَّمَ الْكَلاَمَ عَلَـى ذلِكَ فِى بَابِ الْفَصَاحَـةِ وَالْبَلاَغَةِ. وَأَمَّا الَّذِى تُقَلِّدُ الْعَرَبَ فِيهِ مِنَ اَلْفَاظٍ فَإِنَّمَا هُوَ الإِسْتِشْـهَادُ بِأَشْـعَارِهَا عَلَـى مَا يُنْقَلُ مِـنْ لُغَتِهَا وَالأَخْذُ بِأَقْوَالِهَا فِـى الأَوْضَاعِ النَّحْوِيَّةِ فِي رَفْعِ الْفَاعِلِ وَنَصْبِ الْمَفْعُولِ وَجَرِّ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَجَزْمِ الشَّـرْطِ وَأَشْيَاهِ ذَلِكَ وَمَا عَدَاهُ فَلاَ وَحُسْنُ الأَلْفَاظِ وَقُبْحُهَا لَيْسَ إِضَافِيًّا إِلَى

زَيْـدٍ دُونَ عَمْرٍو أَوْ إِلَى عَمْرٍو دُونَ زَيْدٍ لأَنَّهُ وَصْفٌ ذَوَوِىٌّ لاَ يَتَغَيَّرُ بِالإِضَافَةِ. أَلاَ تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ الْمُزْنَةِ مَثَلاً حَسَنَةٌ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا لاَ يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِى حُسْنِها. وَكَذلِكَ لَفْظَةُ الْبُعَاقِ فَإِنَّهَا قَبِيحَةٌ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا اسْتَعْمَلَتْهَا الْعَرَبُ لاَ يَكُونُ اسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا مُخْرِجًا لَهَا عَنِ الْقُبْحِ وَلاَ يُلْتَفَتُ إِذَنْ إِلَى اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا بَلْ يُعَابُ مُسْتَعْمِلُهَا وَيُغَلَّظُ لَهُ النَّكِيرُ حَيْثُ اسْتَعْمَلَها.

فَلاَ تَظُنَّ أَنَّ الْوَحْشِـىَّ مِنَ الأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ النُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ الْغَرِيبُ الَّذِى يَقِلُّ اسْـتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِـكَ وَلاَ تَجِدُ بِـهِ كَرَاهَةً وَتَـارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِـكَ وَتَجِدُ مِنْهُ الْكَرَاهَةَ. وَذلِكَ فشَـى اللَّفْظِ عَيْبَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ غَرِيبُ الإِسْـتِعْمَالِ وَالآخَرُ أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى السَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى الذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ بِهذِهِ الصِّفَةِ فَلاَ مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغِلاَظَتِهِ وَهُوَ الَّذِى يُسَـمَّى الْوَحْشِىَّ الْغَلِيظَ وَيُسَـمَّى أَيْضًا الْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِـى الْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى وَلاَ يَسْـتَعْمِلُهُ إِلاَّ أَجْهَلُ النَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَىْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هـذَا الْفَـنِّ أَصْلاً. فَإِنْ قِيلَ فَمَا هذَا النَّوْعُ مِنَ الأَلْفَاظِ. قُلْتُ قَدْ ثَبَتَ لَكَ أَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ النُّطْقُ بِهِ. وَسَأَضْرِبُ لَكَ فِى ذلِكَ مِثَالاً فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَأَبَّطَ[1] شَرًّا فِى كِتَابِ الْحَمَاسَةِ.

(١) هو ثابت بن جابر بن سـفيان أبو زهير الفهمى من مصر: شـاعر عداء، =

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا
حَجِيْشًا وَيَعْرُوْرِى ظُهُورَ الْمَهَالِكِ[1]

فإنَّ لَفْظَةَ حَجِيش مِنَ الأَلْفَاظِ الْمُنْكَرَةِ الْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلّهِ الْعَجَبُ أَلَيْسَ أَنَّهَا بِمَعْنَى فَرِيدٍ وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وَضِعَتْ فِي هذَا الْبَيْتِ مَوْضِعَ حَجِيش لَمَا اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هذَا الْمَوْضِعِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْقَبِيحَ وَالآخَرُ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ. وَمِمَّا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهَا وَرَدَ لأَبِي تَمَّام قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَانْبَعَثَتْ
عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا[2]

= من فتال العرب فى الجاهلية. كان من أهل تهامة، شعره فحل، استفتح الضبى مفضلياته بقصيدة له مطلعها:

"يا عيد مالك من شوق وإيراق"

ويقال إنه كان ينظر إلى الظبى فى الفلاة فيجرى خلفه فلا يفوته. قتل فى بلاد هذيل وألقى فى غار يقال له "رخمان" فوجدت جثته فيه بعد مقتله.

انظر المزيد فى: شرح شواهد المغنى ١٨، خزانة البغدادى ١/ ٦٦، ثم ٣/ ٣٥٨ و ٤٦٧، المحبر ١٩٦، التبريزى ١/ ٣٧، الذريعة ١/ ٣٢٥، المبهج ١٧.

(١) ورد هذا البيت فى ديوانه ٥٢. المومأة: المفازة التى لا ماء فيها. الحجيش: المنفرد. يعرورى: يرتكب المهالك..

(٢) ويروى "غُشُوًا دَهاريسا" جمع عشواء. "اطلخم" الأمر إذا اشتد وأظلم ويقال ليل مطلخم، ويوصف به الرجل المتكبر. وعنى "بالعشواء" داهية يعشى=

فَلَفْظَةُ اطْلَخَمَّ مِنَ الأَلْفَاظِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِى جَمَعَتِ الْوَصْفَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ فِى أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ الَّتِى جَمَعَتِ الْوَصْفَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ فِى أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ فشى السَّمْعِ كَرِيهَةٌ عَلَى الذَّوْقِ. وَكَذَلِكَ لَفْظَةُ دَهَارِيسَ أَيْضًا. وَعَلَى هذَا وَرَدَ قَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ يَصِفُ فَرَسًا مِنْ جُمْلَتِهَا:

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ
أَرْوَعُ لاَ جَيْدَرٌ وَلاَ جِبْسُ

فَلَفْظَةُ جَيْدَرٍ غَلِيظَةٌ. وَأَغْلَظُ مِنْهَا قَوْلُ أَبِى الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّى[1]:

= فيها، وبـ "الغيس" الدواهى السود المظلمة. و "الدهاريس" تستعمل فى الدواهى ويجـوز أن تنقـل "الدهاريس" إلى صفات الإبل والناس لأنـه يراد صفتها بالصبر والجرأة على السير.

(١) هو أحمد بن الحسـين بن الحسـن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى أبو الطيب المتنبى الشاعر الحكيم واحد مفاخر الأدب العربى. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعانى المبتكرة وفى علماء الأدب من يعده أشـعر الإسلاميين. ولد بالكوفة فى محلة تسمى "كندة" وإليها نسبته سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م ونشأ بالشام ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس وقال الشعر صبيا وتنبأ فى بادية السـماوة " بين الكوفة والشام" فتبعه كثيرون. وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ "أمير حمص ونائب الإخشـيد" فأسـره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ووفد على سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٣٣٧ هـ فمدحه وحظـى عنـده ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشـيدى وطلب منـه أن يوليه فلم يولـه كافور، فغضب أبو الطيـب وانصرف يهجوه وقصد العـراق، فقرئ عليه =

جَفَخَتْ وَهُمْ لاَ يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ
شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الأَغَرِّ دَلاَئِلُ[1]

فَإِنَّ لَفْظَةَ جَفَخَ مُرَّةُ الطَّعْمِ وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى السَّمعِ اقْشَعَرَّ مِنْهَا وَأَبُو الطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِهَا كَاسْتِعْمَالِ تَأَبَّطَ شَرًّا لَفْظَةَ حَجِيش. فَإِنَّ تَأَبَّطَ شَرًّا كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ تِلْكَ اللَّفْظَةِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَكذلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِ هذِهِ اللَّفْظَةِ الَّتِي هِيَ جَفَخَتْ فَإِنْ مَعْنَاها فَخَرَتْ وَالْجَفْخُ الْفَخْرُ يُقَالُ جَفَخَ فُلاَنٌ إِذَا فَخَرَ وَلَو اسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْ جَفَخَتْ فَخَرَتْ لاسْتَقَامَ وَزْنُ الْبَيْتِ وَحَظِيَ فِي اسْتِعْمَالِهِ بالأَحْسَنِ وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ يَذْهَبُ

= ديوانه. وزار بلاد فارس فمر بأرجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي. وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه ومع المتنبي جماعة أيضًا فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وأبنه محسد وغلامه مفلح بالنعمانية بالقرب من دير العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥ م.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٣٦، معاهد التنصيص ١/ ٢٧، تاريخ ابن الوردي ١/ ٢٩٠، لسان الميزان ١/ ١٥٩، المنتظم ٧/ ٢٤، تاريخ بغداد ٤/ ١٠٢.

(١) جَخَف وجمخ: إذا فخر والشيم الأخلاق. وقيل هي الدلائل وفاعل جخفت شيم تقديره جخفت بهم شيم وهم لا يجخفون بها. يقول: إن شيمهم تفتخر بهم، لحلوها فيهم وهم لا يفتخرون بها لأن أخطارهم أعظم من أن تلك الشيم هي أشرف الشيم من حيث أنها دلائل على حسبهم الأغر الكريم.

هـذَا الَّذِى ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِى مَجْرَاهُ مِنَ الأَلْفَاظِ هُوَ الْوَحِىُّ الْغَلِيظُ الَّـذِى ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِى مَجْرَاهُ مِنَ الأَلْفَاظِ هُوَ الْوَحْشِـىُّ الْغَلِيظُ الَّـذِى لَبْسَ لَهُ مَا يُدَانِيهِ فِى قُبْحِـهِ وَكَرَاهَتِهِ وَهذِه الأَمْثِلَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَـا أَرَادْنَاهُ. وَالْعَـرَبُ إِذَنْ لاَ تُلاَمُ عَلَى اسْـتِعْمَالِ الْغَرِيبِ الْحَسَنِ مِنَ الأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا تُلاَمُ عَلَى الْغَرِيبِ الْقَبِيحِ وَأَمَّا الْحَضَرِىُّ فَإِنَّهُ يُلاَمُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْقِسْمَيْنِ مَعًا وَهُوَ فِى أَحَدِهِمَا أَشَدُّ مَلاَمَةً مِنْهُ فِى الآخَرِ.

(من المثل السائر)

الْقِسمُ الثَّانِى

فِى الْكَلَامِ

قَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِى هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْكَلَامَ الْفَصِيحَ هُوَ الَّذِى يَعِزُّ فَهْمُهُ وَيَبْعُدُ مُتَنَاوَلُهُ وَإِذَا رَأَوْا كَلَامًا وَحْشِيًّا غَامِضَ الْأَلْفَاظِ يُعْجَبُونَ بِهِ وَيَصِفُونَهُ بِالْفَصَاحَةِ وَهُوَ بِالضِّدِّ مِنْ ذٰلِكَ لِأَنَّ الْفَصَاحَةَ هِىَ الظُّهُورُ وَالْبَيَانُ لَا الْغُمُوضُ وَالْخَفَاءُ وَسَأُبَيِّنُ لَكَ مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِى هٰذَا الْمَوْضِعِ فَأَقُولُ الْأَلْفَاظُ تَنْقَسِمُ فِى الِاسْتِعْمَالِ إِلَى جَزْلَةٍ وَرَقِيقَةٍ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ يَحْسُنُ اسْتِعْمَالُهُ فِيهِ. فَالْجَزْلُ مِنْهَا يُسْتَعْمَلُ فِى وَصْفِ مَوَاقِفِ الْحُرُوبِ وَفِى قَوَارِعِ التَّهْدِيدِ وَالتَّخْوِيفِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ. وَأَمَّا الرَّقِيقُ مِنْهَا فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ فِى وَصْفِ الْأَشْوَاقِ وَذِكْرِ أَيَّامِ الْبِعَادِ وَفِى اسْتِجْلَابِ الْمَوَدَّاتِ وَمُلَايَنَاتِ الِاسْتِعْطَافِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ. وَلَسْتُ أَعْنِى بِالْجَزْلِ مِنَ الْأَلْفَاظِ أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا مُتَوَعِّرًا عَلَيْهِ عَنْجَهِيَّةُ الْبَدَاوَةِ بَلْ أَعْنِى بِالْجَزْلِ أَنْ يَكُونَ مَتِينًا عَلَى عُذُوبَتِهِ فِى الْفَمِ وَلَذَاذَتِهِ فِى السَّمْعِ. وَكَذٰلِكَ لَسْتُ أَعْنِى بِالرَّقِيقِ أَنْ يَكُونَ رَكِيكًا سَفْسَافًا وَإِنَّمَا هُوَ اللَّطِيفُ الرَّقِيقُ الْحَاشِيَةِ النَّاعِمُ الْمَلْبَسِ كَقَوْلِ أَبِى تَمَّامٍ[1]:

---

(١) ورد هذا البيت فى ديوانه ٢/ ٤٥٠.

نَاعِمَاتُ الأَطْرَافِ لَوْ أَنَّها تَا
ـبَسُ أَغْنَتْ عَنِ الْمُلاَءِ الرِّقَاقِ

وَسَأَضْرِبُ لَكَ مِثَالاً لِلْجَزْلِ مِنَ الأَلْفَاظِ وَالرَّقِيقِ فَأَقُولُ انْظُرْ إِلَى قَوَارِعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ ذِكْرِ الْحِسَابِ وَالْعَذَابِ وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ وَعِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَمُفَارَقَةِ الدُّنْيَا وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فَإِنَّكَ لاَ تَرَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَحْشِيَّ الأَلْفَاظِ وَلاَ مُتَوَعِّرًا. ثُمَّ انْظُرْ إِلَى ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالْمُلاَطَفَاتِ فِي خِطَابِ الأَنْبِيَاءِ وَخِطَابِ الْمُنِيبِينَ وَالتَّائِبِينَ مِنَ الْعِبَادِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فَإِنَّكَ لاَ تَرَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفَ الأَلْفَاظِ وَلاَ سَفْسَاقًا. فَمِثَالُ الأَوَّلِ وَهُوَ الْجَزْلُ مِنَ الأَلْفَاظِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ. وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ. وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ تَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين﴾ [سورة الزمر: الآيات ٦٨ إلى ٧٣]. فَتَأَمَّلْ هذه الآيَاتِ الْمُضَمَّنَةَ ذِكْرَ الْحَشْرِ عَلَى تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهِ وَذِكْرَ النَّارِ وَالْجَنَّةِ وَانْظُرْ هَلْ فِيها لَفْظَةٌ إِلاَّ وَهِيَ سَهْلَةٌ مُسْتَعْذَبَةٌ عَلَى مَا بِهَا مِنَ الْجَزَالَةِ. وَكَذلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٤]. وَأَمَّا مِثَالُ الثَّانِي وَهُوَ الرَّقِيقُ مِنَ الأَلْفَاظِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [سورة الضحى: الآية ١]. إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَكَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَرْغِيبِ الْمَسْئَلَةِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨]. وَهكَذَا تَرَى سَبِيلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي كِلاَ هذَيْنِ الْحَالَيْنِ مِنَ الْجَزَالَةِ وَالرِّقَّةِ. وَكَذلِكَ كَلاَمُ الْعَرَبِ الأَوَّلِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ مِمَّا وَرَدَ عَنْهَا نَثْرًا وَيَكْفِي مِنْ ذلِكَ كَلاَمُ قَبِيصَةَ بْنِ نُعَيْمٍ لَمَّا قَدِمَ عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ[1] فِي

(١) هو امْرُؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى من بنى آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يمانى الأصل مولده بنجد نحو ١٣٠ هـ/ ٤٩٧ م أو بمخلاف السكاسك باليمن اشتهر بلقبه. واختلف المؤرخون فى اسمه فقيل حُنْدُج وقيل مليكة وقيل عدى. وكان أبوه ملك أسد وغطفان. وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلى "دمون" =

أَشْـيَاخِ لِبَنِى أَسَدٍ[1] يَسْـأَلُونَهُ الْعَفْوَ عَنْ دَمِ أَبِيهِ فَقَالَ لَهُ إِنَّكَ فِى

= بحضرموت موطن أبائه وعشيرته وهو فى نحو العشرين من عمره فأقام زهاء خمس سنين، ثم جعل ينتقل مع أصحابه فى أحياء العرب، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك أمرو القيس وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبى ضيعنى صغيرًا وحملنى دمه كبيرًا، لاصحو اليوم ولا سكر غدًا. اليوم خمر وغدًا أمر، ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بنى أسد. وقال فى ذلك شعرًا كثيرًا. وكانت حكومة فارس ساخطة على بنى آكل المرار "آباء امرىء القيس" فأوعزت إلى المنذر "ملك العراق" بطلب امرىء القيس فطلبه، فابتعد وتفرق عنه أنصاره فطاف قبائل العرب حتى انتهى إلى السموأل، فأجاره فمكث عنده مرة ثم رأى أن يستعين بالروم على الفرس. فقصد الحارث بن أبى شمر الغسانى "والى بادية الشام" فسيره هذا إلى قيصر الروم يوستينياس Justinisnus ويسمى Justinienler فى القسطنطينية فوعده ومطله ثم ولاه إمرة فلسطين "البادية" ولقبه "فيلاروق Phylayck"، أى الوالى، فرحل يريدها. فلما كان بأنقره ظهرت فى جسمه قروح. فأقام إلى أن مات فى أنقره سنة ٨٠ هـ/ ٥٤٥م.

انظر المزيد فى: الأغانى ٩/ ٧٧، تهذيب ابن عساكر ٣/ ١٠٤، شرح شواهد المغنى ٦، جمهرة أنساب العرب ٣٩، الشعر والشعراء ٣١، خزانة البغدادى ١/ ١٦٠ ثم ٣/ ٦٠٩ - ٦٢٢، النريعة ٢/ ٣٤٩، صحيح الأخبار ١/ ٦ و ١٦ - ١١٠.

(١) هو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس من مضر جدٌ جاهلى ينسب إليه بعض الأسديين وكانت بلادهم فى نجد ثم تفرقوا وتكاثروا فى شمال شبه الجزيرة وراء جبال شمر، ونزل جماعات منهم بين البصرة والكوفة، وفى الكوفة نفسها فى حَىٍّ خاص بهم وقطن آخرون منهم بلدة "سَطِيف" غربى القيروان فى إفريقية. وكانت منهم فرق فى جيوش عَلَى والحسين والمختار والمهلب وابنه يزيد. =

الْمَحَــلِّ وَالْقَدْرِ مِنْ الْمَعْرِفَةِ بِتَصَرُّفِ الدَّهْرِ وَمَا تُحْدِثُهُ أَيَّامُهُ وَتَنْتَقِلُ بِــهِ أَحْوَالُهُ بِحَيْثُ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى تَذْكِيرٍ مِــنْ وَاعِظٍ وَلاَ تَبْصِيرٍ مِنْ مُجَرِّبٍ. وَلَكَ مِنْ سُــؤْدُدِ مَنْصِبِكَ وَشَرَفِ أَعْرَافِكَ وَكَرَمِ أَصْلِكَ فِي الْعَــرَبِ مَحْتِدٌ يَحْتَمِلُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنْ إِقَالَةِ الْعَثْرَةِ وَالرُّجُوعِ عَنِ الْهَفْوَةِ وَلاَ تَتَجَاوَزُ الْهِمَمُ إِلَى غَايَةٍ إِلاَّ رَجَعَتْ إِلَيْكَ فَوَجَدَتْ عِنْدَكَ مِــنْ فَضِيلَةِ الرَّأْيِ وَبَصِيرضَةِ الْفَهْمِ وَكَرَمِ الصَّفْحِ مَا يَطُولُ رَغَبَاتِهَا وَيَسْــتَغْرِقُ طَلِبَاتِهَا. وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ الَّذِي عَمَّتْ رَزِيئَتُهُ نِزَارًا وَالْيَمَنَ وَلَمْ نُخْصَصْ بِذَلِكَ كِنْدَةُ دُونَنَا لِلشَّــرَفِ الْبَــارِعِ الَّذِي كَانَ لِحُجْرٍ وَلَوْ كَانَ يُفْدَ هَالِكٌ بِالأَنْفُسِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ لَمَا بَخِلَتْ أَكَارِمُنَا بِهَا عَلَى مِثْلِهِ وَلَكِنَّهُ مَضَى بِهِ سَــبِيلٌ لاَ تَرْجِعُ أُخْرَاهُ عَلَى أُولاَهُ وَلاَ يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أَدْنَاهُ. فَاحْمَدُ الْحَالاَتِ فِي ذَلِكَ أَنْ تَعْــرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي إِحْــدَى خِلاَلِ ثَلاَثٍ إِمَّا أَنْ تَخْتَارَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا وَأَعْلاَهَا فِي بِنَاءِ الْمَكْرُمَاتِ صَوْتًا فَنَقُودَهُ إِلَيْكَ بِنِسْــعِهِ نَذْهَبُ مَعَ شَــفَرَاتِ حُسَــامِكَ بِبَاقِي قَصَرَتِهِ فَنَقُولُ رَجُــلٌ امْتُحِنَ بِهَالِكٍ عَزِيزٍ فَلَمْ يَسْــنَلَّ صَحِيمَتَــهُ إِلاَّ بِمُكْنَتِهِ مِنَ الإِنْتِقَامِ. وَإِمَّا فِدَاءُ بِمَا يَرُوحُ عَلَى بَنِي أَسَــدٍ مِنْ نَعَمِهَا فَهِيَ أُلُوفٌ تُجَاوِزُ الْخَمْسَــةَ فَيَكُونُ ذَلِكَ فِدَاءَ تَرْجِعُ بِهِ الْقُضُبُ إِلَى أَجْفَانِهَا. وَإِمَّا أَنْ تُوَادِعَنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الْحَوَامِلُ فَتُسْــدَلَ الأُزُرُ وَتُعْقَدَ الْخُمُرُ

=انظر المزيد في: سبائك الذهب ٥٨، جمهرة أنساب العرب ٤٣٥.

فَوْقَ الرَّايَاتِ. قَالَ فَبَكَى الْحَوَامِلُ فَتُسْدِلَ الأُزُرُ وَتُعْقَدَ الْخُمُرُ فَوْقَ الرَّايَاتِ. قَالَ فَبَكَى سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّهُ لاَ كُفُوَ لِحُجْرٍ فِي دَمٍ وَإِنِّي لَنْ أَعْتَاضَ جَمَلاً وَلاَ نَاقَةً فَأَكْتَسِبَ بِهِ سُبَّةَ الأَبَدِ وَفَتَّ الْعَضُدِ. وَأَمَّا النُّظِرَةُ فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الأَجِنَّةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا وَلَنْ أَكُونَ لِعَطِيَّهَا سَبَبًا وَسَتَعْرِفُونَ طَلاَئِعَ كِنْدَةَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَحْمِلُ فِي الْقُلُوبِ حَنَقًا وَفَوْقَ الأَسِنَّةِ عَلَقًا:

إِذَا جَالَتِ الخَيْلُ فِي مَأْزِقٍ
تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا النُّفُوسَا

أَتُقِيمُونَ أَم تَنْصَرِفُونَ. قَالُوا بَلْ نَنْصَرِفُ بِأَسْوَإِ الإِخْتِيَارِ وَأَبْلَى الإِجْتِرَارِ بِمَكْرُوهٍ وَأَذِيَّةٍ وَحَرْبٍ وَبَلِيَّةٍ. ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ وَقَبِيصَةُ يَتَمَثَّلُ:

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوِرْدَ إِنْ عَدَتْ
كَتَائِبُنَا فِي مَأْزِقِ الْحَرْبِ تَمْطُرُ

فَقَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ لاَ وَاللهِ وَلَكِنْ أَسْتَعْذِبُهُ فَرُوَيْدًا يَنْفَرِجُ لَكَ دُجَاهَا مِنْ فُرْسَانِ كِنْدَةَ وَكَتَائِبِ حِمْيَرَ[1] وَلَقَدْ كَانَ ذِكْرُ غَيْرِ هَذَا بِي أَوْلَى

(١) هو حمير بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان جدّ جاهلي قديم. كان ملك اليمن، وإليه نسبة الحميريين "ملوك اليمن وأقياله" وكان شجاعًا مظفرًا يقول مؤرخو العرب إنه حكم بعد أبيه سبأ وعاصمة ملكة صنعاء، وإنه غزا وافتتح حتى بلغ بعض غزاته الصين. وأتخذ تاجًا من الذهب فكان أول من تتوج به. ويذكرون من وقائعة قتاله لقبائل ثمود. وكان مقامها في اليمن ففرقها فارتحلت إلى=

إِذْ كُنْتَ نازِلاً بِرَبْعِي وَلكِنَّكَ قُلْتَ فَأَوْجَبْتَ فَلْتَنْظُرْ إِلَى هذَا الْكَلاَمِ مِنَ الرَّجُلَيْنِ قَبِيصَةَ وَامْرِىءِ الْقَيْسِ حَتَّى يَدَعَ الْمُتَعَمِّقُونَ نَعَمُّقَهُمْ فِي اسْتِعْمَالِ الْوَحْشِيِّ مِنَ الأَلْفَاظِ فَإِنَّ هذَا الْكَلاَمَ قَدْ كَانَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ قَبْلَ الإِسْلاَمِ بِمَا شَاءَ اللهُ.

وَإِذَا كَانَ هذَا قَوْلَ سَاكِنٍ فِي الْفَلاَةِ لاَ يَرَى إِلاَّ شِيحَةً أَوْ قَيْصُومَةً وَلاَ يَأْكُلُ إِلاَّ ضَبًّا أَوْ يَرْبُوعًا فَمَا بَالُ قَوْمٍ سَكَنُوا الْحَضَرَ وَوَجَدُوا رَقَّةَ الْعَيْشِ يَتَعَاطَوْنَ وَحْشِيَّ الأَلْفَاظِ وَشُظَفَ الْعِبَارَاتِ وَما يُخْلِدُ إِلَى ذلِكَ إِلاَّ إِمَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ وَإِمَّا عَاجِزٌ عَنْ سُلُوكِ

=الحجاز، وأنه عاش خمسين سنة بعد أبيه. وولد له خمسة أولاد: مالك وعامر وعمرو وسعد ووائل. ومن بطون حمير: السكاسك "وقيل: هم من كنده" والشعبيون وبنو الريان وقضاعة وعبد شمس. ومن ملوك الحميريين: التبابعة والأذواء والأقيال، ويرى بعضهم أن اسمه "العرنج" وأنه لقب بحمير لكثرة لبسه الثياب الحمر. وكان يكتب بالمسند على جميع سلاحه. وفى الجبال التى يمر بها. قال صاحب التيجان: ثم حوّله إلى الخط "الحميرى" المنسوب إليه. ولما حان مؤته قال لبنيه: إنى لأجد ثقل الثرى وغم الضريح فاجعلوا لى نفقًا فى هذا الجبل - جبل عيفر - وأجلسونى فيه، ففعلوا به ذلك، فهو - على رواية وهب بن منبه - أول من جُعل فى مغارة، وقد وضعت معه فى تلك المغارة دراعه، آنفة من أن يلبسها بعده غيره. وكان لبنى حمير فى الجاهلية صنم اسمه "نَسْر" منصوب بنجران، وآخر اسمه "رئام" بصنعاء. وفى طرفة الأصحاب "المقول إنه من تآليف الأشرف الرسولى" سلسلة ملوك حمير، كما كانت معروفة فى عصر الأشرف.

انظر المزيد: التيجان ٥١، جمهرة أنساب العرب ٤٠٦ و ٤٥٩، نهاية الأرب ١٥/ ٢٩١، الأكليل ٨/ ١٧٩ - ١٨٠، طرفة الأصحاب ١٢ و ٤٣.

طَرِيقِهَـا. فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِمَّنْ شَـدا شَـيْئًا مِنْ عِلْـمِ الأَدَبِ يُمكْنُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْوَحْشِـيِّ مِنَ الْكَلاَمِ وَذَاكَ أَنَّـهُ يَلْتَقِطُهُ مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ أَوْ يَتَلَقَّفُـهُ مِنْ أَرْبَابِهَا. وَأَمَّا الْفَصِيحُ الْمُتَّصِـفُ بِصِفَةِ الْمَلاَحَةِ فَإِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَمَّا عَلِمَ أَيْنَ يَضَعُ يَدَهُ فِي تَأْلِيفِهِ وَسَبْكِهِ فَإِنْ مَارَى فِي ذلِكَ مُمَارٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَشْـعَارِ عُلَمَاءِ الأَدَبِ مِمَّنْ كَانَ مُشَـارًا إِلَيْهِ حَتَّى يَعْلَمَ صِحَّةَ مَا ذَكَرْتُهُ. هذَا ابْنُ دُرَيْدٍ[1]. قَدْ قِيلَ إِنَّهُ أَشْـعَرُ عُلَمَاءِ الأَدَبِ وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى شِعْرِهِ وَجَدْتَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى شِعْرِ الشُّعَرَاءِ الْمُجِيدِينَ مُنْحَطًّا مَعَ أَنَّ أُولئِكَ الشُّعَرَاءَ لَمْ يَعْرِفُوا مِنْ

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدى من أزد عمان من قحطان أبو بكر، من أئمة اللغة والأدب كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء وهو صاحب "المقصورة الدريدية" ولد فى البصرة سـنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م وانتقل إلى عمان فأقام أثنى عشـر عامًا، وعاد إلى البصرة ثم حـل إلى نواحى فارس، فقلده "آل ميكال" ديـوان فـارس ومدحهم بقصيدته "المقصورة" ثم رجـع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسى فأجرى عليه فى كل شهر خمسين دينارًا فأقام إلى أن توفى سنة ٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م. ومن كتبه "الاشـتقاق" فى الأنسـاب و "المقصور والممدود" و "شـرحه" و "الجمهـرة" فى اللغة ثلاثة مجلدات و "دخائر الحكمة" رسـالة و "المجتنى" و "صفة السـرج واللجام" و "الملاحن" و "السـحاب والغيث" و "تقويم اللسان" و "أدب الكاتب" و "الأمالى" و "الوشاح" و "زوار العرب" و "اللغات".

انظـر المزيد فى: إرشـاد الأريب ٦/ ٤٨٣، وفيـات الأعيان ١/ ٤٩٧، طبقات السـبكى ٢/ ١٤٥، آداب اللغة ٢/ ١٨٨، لسـان الميـزان ٥/ ١٣٢، نزهة الألباء ٣٢٢. المرزبانى ٤٦١، تاريخ بغداد ٢٣/ ١٩٥، خزانة الأدب ١/ ٤٩٠ - ٤٩١.

عِلْمِ الأَدَبِ عُشْـرَ مِعْشَـارِ مَا عَلِمَهُ. هذَا الْعبَاسُ بْنُ الأَحْنَفِ[1] قَدْ كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الشُّـعَرَاءِ الْمُجِيدِينَ وَشِعْرُهُ كَمَمَرٍّ نَسِيمٍ عَلَى عَذَبَاتِ أَغْصَـانٍ وَكَلُولُؤَاتِ طَلٍّ عَلَى طُرَرِ رَيْحَـانٍ وَلَيْسَ فِيهِ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ غَرِيبَةٌ يُحْتَاجُ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ.

(انتهى ملخصًا عن المثل السائر)

---

(١) هو العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي أبو الفضل: شاعر غزل رقيـق، قال فيه البحـتري: أغزل الناس. أصله من اليمامة "في نجد" وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه ونشأ هو ببغداد وتوفي بها سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م وقيل بالبصرة خالف الشـعراء في طريقتهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شـعره كله غزلاً وتشبيبًا له "ديوان شعر" وهو خال إبراهيم بن العباس الصولي.

انظـر المزيد في: وفيـات الأعيان ١/ ٢٤٥، معاهد التنصيص ١/ ٥٤، الأغاني ١/ ٥٤، ٨/ ٣٥٢، الشعر والشعراء ٣٣٥، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢٧، البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٩، تاريخ بغداد ١٢/ ١٢٧.

الْفصلُ الرَّابِعُ

فِى انْقِسامِ الْكَلاَمِ إِلَى فَنَّىِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ

إِعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلاَمَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلاَمُ الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِى تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِىٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ. وَفَنُّ النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلاَمُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِى الْكَلاَمِ. فَأَمَّا الشِّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالْهِجَاءُ وَالرِّثَاءُ. وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ السَّجْعُ الَّذِى يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِى كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِى يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلاَمُ إِطْلاَقًا وَلاَ يُقَطَّعُ أَجْزَاءَ بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالاً مِنْ غَيْرِ تَتْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلاَ غَيْرِهَا.

وَيُسْتَعْمَلُ فِى الْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلاَّ أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلاً مُطْلَقًا وَلاَ مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِى إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقَ بِانْتِهَاءِ الْكَلاَمِ عِنْدَهَا ثُمَّ يُعَادُ الْكَلاَمُ فِى الآيَةِ الأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا

الآيات. وَيُسَمَّى آخِرُ الآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلاَ الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلاَ هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ. وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلاَ تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الآخَرِ وَلاَ تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ فَالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ الأَسْجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَى الأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلاَّ فِي الْوَزْنِ. وَاسْتَمَرَّ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْكُتَّابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الإِسْتِعْمَالَ فِي الْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي ارْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتِ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكُتَّابِ الْغُفْلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الأُسْلُوبِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلاَغَةِ لِمَا يُلاَحَظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلاَمِ عَلَى الْفَنِّ الْمَنْثُورِ الْمُقَفَّى أَدْخَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ فَوَجَبَ

أَنْ تُنَزَّهَ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ الشِّعْرِ تُنَافِيهَا اللُّوذَعِيَّةُ وَخَلْطُ الْجِدِّ بِالْهَزْلِ وَالإِطْنَابُ فِي الأَوْصَافِ وَضَرْبُ الأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِيهَاتِ وَالاِسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لاَ تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذلِكَ فِي الْخِطَابِ. والْمَحْمُودُ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ التَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلاَقُ الْكَلاَمِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلاَّ فِي الأَقَلِّ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِرْسالاً مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلاَمِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هذَا النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ الشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ الْعَصْرِ إِلاَّ اسْتِيلاَءُ الْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلاَمِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلاَمِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلاَمِ الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ فِي الْبَلاَغَةِ وَانْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهذَا الْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلاَمِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذلِكَ الْقَدْرِ مِنَ التَّزْيِينِ بِالأَسْجَاعِ وَالأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلاَمِهِمْ كُتَّابُ الْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِالإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي

تَجْنِيــس أَوْ مُطَابَقَةٍ لا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذلِكَ الصِّنْفَ مِنَ التَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ الإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ التَّجنِيــسَ. فَتَأَمَّلْ ذلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ ما ذَكَرْنَاهُ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ إِلَى الصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(عن ابن خلدون)

الْفصْلُ الْخَامِسُ

فِى السَّجْعِ

إِعْلَمْ أَنَّ السَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاَثَةِ أَقْسَام. الأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ الْفَصْلاَنِ مُتَسَاوِيَيْنِ لاَ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [سورة الضحى: الآية ٩]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ [سورة العاديات: الآية ١]. أَلاَ تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هذِهِ الْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ الأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ. وَأَمْثَالُ ذلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ السَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلاعْتِدَالِ الَّذِي فِيهِ.

أَلْقِسْمُ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ الْفَصْلُ الثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ الأَوَّلِ لاَ طُولاً يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا. فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [سورة الفرقان: الآيات ١١ - ١٣]. أَلا تَرَى أَنَّ الْفَصْلَ الأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَالْفَصلَ الثانِيَ وَالثَّالِثَ تِسْعُ تِسْعُ.

وَيُسْتَثْنَى مِنْ هذَا الْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ السَّجْعِ عَلَى ثَلاَثِ فِقَرٍ فَإِنَّ الْفِقْرَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ يُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ تَأْتِي الثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولاً يَزِيدُ عَلَيْهِمَا فَإِذَا كَانَتِ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ الثَّالِثَةُ عَشْرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ. إِلاَّ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ ذلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي السَّجَعَاتِ الثَّلاَثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ الْكَلاَمِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ الْجَوَازَ يَعُمُّ الْجَانِبَيْنِ مِنَ التَّسَاوِي فِي السَّجَعَاتِ الثَّلاَثِ وَمِنْ زِيَادَةِ السَّجْعَةِ الثَّالِثَةِ. أَلاَ تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلاَثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ. مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ. وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾. فَهذِهِ السَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ الثَّالِثَةُ مِنْهَا خَمْسَ لَفَظَاتٍ أَوْ سِتًّا لَمَا كَانَ ذلِكَ مَعِيبًا.

أَلْقِسْمُ الثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ الآخَرُ أَقْصَرَ مِنَ الأَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيْبٌ فَاحِشٌ وَسَبَبُ ذلِكَ أَنَّ السَّجْعَ يَكُونُ قَدِ اسْتَوْفَى أَمَدَهُ مِنَ الْفَصْلِ الأَوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ ثُمَّ يَجِيءُ الْفَصْلُ الثَّانِي قَصِيرًا عَنِ الأَوَّلِ فَيَكُونُ كَالشَّيْءِ الْمَبْتُورِ فَيَبْقَى الإِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ الإِنْتِهَاءَ إِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا.

وَإِذَا انْتَهَيْنَا إِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَّا أَقْسَامَ السَّجْعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلاً كُلِّيًّا وَهُوَ أَنَّ السَّجْعَ عَلَى اخْتِلاَفِ أَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ أَحَدُهُمَا

يُسَمَّى السَّجْعَ الْقَصِيرَ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ الأَلْفَاظُ كَانَ أَحْسَنَ لِقُرْبِ الْفَوَاصِلِ الْمَسْجُوعَةِ مِنْ سَمْعِ السَّامِعِ وَهذَا الضَّرْبُ أَوْعَرُ السَّجْعِ مَذْهَبًا وَأَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلاً وَلاَ يَكَادُ اسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ إِلاَّ نَادِرًا. وَالضَّرْبُ الآخَرُ يُسَمَّى السَّجْعَ الطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ الأَوَّلِ لأَنَّهُ أَسْهَلُ مُتَنَاوَلاً. وَإِنَّما كَانَ الْقَصِيرُ مِنَ السَّجْعِ أَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ الطَّوِيلِ لأَنَّ الْمَعْنَى إِذَا صِيغَ بِأَلْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ السَّجْعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ الأَلْفَاظِ وَضِيقِ الْمَجَالِ فِي اسْتِجْلاَبِهِ وَأَمَّا الطَّوِيلُ فَإِنَّ الأَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ السَّجْعُ مِنْ حَيْثُ وَلَيْسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذلِكَ سَهْلاً. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ الأَلْفَاظِ. أَمَّا السَّجْعُ الْقَصِيرُ فَأَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفْظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [سورة المدثر: الآيات ١ - ٤]. وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلاَثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذلِكَ الْعَشَرَةُ وَمَا زَادَ عَلَى ذلِكَ فَهُوَ مِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [سورة النجم: الآية ١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ.

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ [سورة القمر: الآيات ١ - ٣]. وأمَّا السَّجْعُ الطَّويلُ فَإنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي الطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ السَّجْعِ القَصيرِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [سورة هود: الآيات ٩ - ١٠]. فَالأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً وَالثَّانِيَةُ ثَلاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً. وَكَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة التوبة: الآيات ١٢٨ - ١٢٩]. وَمِنَ السَّجْعِ الطَّويلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ الْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٤٣ - ٤٤]. وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هذِهِ الْعِدَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ.

(عن المثل السائر)

الْفصْلُ السَّادِسُ

فِى كَيْفِيَّةِ عَمَلِ الشِّعْرِ وَوَجْهِ تَعَلُّمِهِ

إِعْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ الشِّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوَّلُهَا الْحِفْظُ مِنْ جِنسِتِهِ أَىْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِى النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَيُتَخَيَّرُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الْحُرِّ النَّقِىِّ الْكَثِيرِ الأَسَالِيبِ. وَهذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقَلُّ مَا يَكْفِى فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الإِسْلاَمِيِّينَ مِثْلِ ابْنِ أَبِى رَبِيعَةَ[1]

---

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى القرشى أبو الخطاب أرق شعراء عصره من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن فى قريس أشعر منه. ولد فى الليلة التى توفى بها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٤ م فسمى باسمه. وكان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه ورفع إلى عمر بن عبد العزيز أنه يتعرض لنساء الحاجّ ويسبب بهن، فنفاه إلى "دهلك" ثم غزا فى البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه فمات فيها غرقًا سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م. له "ديوان شعر".

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ٣٥٣ و ٣٧٨. سرح العيون ١٩٨. الأغانى ١/ ٦١، شرح شواهد المغنى ١١، الشعر والشعراء ٢١٦، خزانة البغدادى ١/ ٢٤٠.

وَكُثَيِّرٍ[1] وَذِي الرُّمَّةِ[2] وَجَرِيرٍ[3] وَأَبِي نُوَاسٍ وَحَبِيبِ

(١) هو كثير بن عبد الله بن مالك التميمى النهشلى المعروف بابن الغريزة شاعر أدرك الجاهلية والإسلام وقال الشعر فيهما. أورد له صاحب الأغانى أبياتًا فى رثاء جماعة قتلوا فى وقعة بالطالقان وكان قد شهدها معهم فى عهد عمر، أولها:

سقى مزن السحاب إذا استهلت

مصارع فتية بالجوزجان

قال المرزبانى: عاش إلى إمرة الحجاج و "الغريزة" أمه وكانت سبية من تغلب. مات سنة ٧٠ هـ/ ٦٩٠م.

انظر المزيد فى: الأغانى ١٠/ ٩١ و ١١/ ٢٧٨ - ٢٨٠، سمط اللآلى ٣/ ٢٨، الإصابة ت ٧٤٨٥، خزانة الأدب ٤/ ١١٨، المرزبانى ٣٤٩.

(٢) هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوى من مضر أبو الحارث ذو الرمة شاعر من فحول الطبقة الثانية فى عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذى الرمة. وكان شديد القصر، دميمًا، يضرب لونه إلى السواد أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلاله، يذهب فى ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيمًا بالبادية يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرًا وامتاز بإجادة التشبيه. قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: "ما بال عينك منها الماء ينسكب" لكان أشعر الناس. وقال الأصمعى: لو أدركت ذا الرمة لأشرت عليه أن يدع كثيرًا من شعره، فكان ذلك خيرًا له. وعشق "مية" المنقرية واشتهر بها. له "ديوان شعر: فى مجلد ضخم توفى بأصبهان وقيل بالبادية سنة ١١٧هـ/ ٧٣٥ م وكان مولده سنة ٧٧ هـ/ ٦٩٦ م.

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ٤٠٤، الموشح ١٧٠ - ١٨٥، الشعر والشعراء ٢٠٦، معاهد التنصيص ٣/ ٢٦٠، خزانة الأدب ١/ ٥١ - ٥٣، جمهرة أشعار العرب ١٧٧، طبقات الشعراء ١٢٥، تزيين الأسواق ١/ ٨٨، الشريشى ٢/ ٥٣.

(٣) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى بن بدر الكلبى اليربوعى من تميم =

والْبُحْتُرِيِّ وَالرَّضِيِّ[1] وَأَبِي فِرَاسٍ[2] وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابٍ

= أشعر أهل عصره ولد سنة ٢٨ هـ/ ٦٤٠ م ومات في اليمامة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجاءًا مرًّا - فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. وكان عفيفًا ومن أغزل الناس شعرًا. وقد جمعت "نقائضه مع الفرزدق" في ثلاثة أجزاء و "ديوان شعره" في جزأين. وأخباره مع الشعراء وغيرهم كثيرة جدًا. وكانت يكنى أبيى حَزْرَة.

انظر المزيد في: الأغاني ٨/ ١٢٥، وفيات الأعيان ١/ ١٠٢، طبقات الشعراء، الشريشي ٢/ ٢٤٩، شرح شواهد المغني ١٦، الشعر والشعراء ١٧٩، خزانة البغدادي ١/ ٣٦.

(١) هو محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني المرسوني، أشعر الطالبيين، على كثرة المجيدين فيهم، مولوده سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠ م ووفاته في بغداد سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م إنتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده. وخلع عليه بالسواد وجدد له التقليد سنة ٤٠٣ هـ. له "ديوان شعر" مجلدين و "المجازات النبوية" و "مجاز القرآن" و "مختار شعر الصابي" و "مجموعة مادار بينه وبين أبي إسحاق الصابي من الرسائل" وشعره من الطبقة الأولى رصفًا وبيانًا وإبداعًا.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ٢/ ٢، تاريخ بغداد ٢/ ٢٤٦، المنتظم ٧/ ٢٧٩، يتيمة الدهر ٢/ ٢٩٧ - ٣١٥، نزهة الجليس ١/ ٣٥٩، الذريعة ٧/ ١٦.

(٢) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي أبو فراس الحمداني أمير شاعر فارس وهو ابن عم سيف الدولة كان الصاحب بن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك يعني امرأ القيس وأبا فراس - وله وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه، وقلده منبجًا وحران وأعمالها فكان يسكن بمنبج "بين حلب =

الأَغَانِيِّ[1] لأَنَّهُ فَجَمَع شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ كُلَّهُ وَالْمُخْتَارَ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ

=والفرات" وينتقل فى بلاد الشام وجرح فى معركة مع الروم فأسروه سنة ٣٥١ هـ فامتاز شعره فى الأسر بروحياته وبقى فى القسطنطينية أعوامًا ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة. قال الذهبى. كانت له منبج وتملك حمص وسار ليتملك حب، فقتل فى تدمر. وقال ابن خلكان مات قتيلا فى صدد على مقربة من حمص قتله أحد أتباع سعد الدولة بن سيف الدولة وبينهما تنافس. ولد سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢ م ومات سنة ٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م.

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ١٢٧، تهذيب ابن عساكر ٣/ ٤٣٩، شذرات الذهب ٣/ ٢٤، المنتظم ٧/ ٦٨، الذريعة ٧/ ١١٤ يتيمة الدهر ١/ ٢٢ - ٦٢، زبدة الحلب ١/ ١٥٧.

(١) هو على بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المروانى الأموى القرشى أبو الفرج الأصبهانى من أئمة الأدب، الأعلام فى معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازى. ولد فى أصبهان سنة ٢٨٤ هـ/ ٧٩٨ م ونشأ وتوفى ببغداد سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م. قال الذهبى: والعجيبة "أنه أموى شيعى" وكان يبعث بتصانيفه سرًا إلى صاحب الأندلس الأموى فيأتيه إنعامه. له عدة مصنفات منها "الأغانى" و "مقاتل الطالبيين" و "نسب عبد شمس" و "القيان" و "الإماء الشواعر" و "أيام العرب" و "جمهرة النسب" و "الديارات" و "مجرد الأغانى" و "الحانات" و "الخمارون والخمارات" و "آداب الغرباء".

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ٣٣٤، يتيمة الدهر ٢/ ٢٧٨، مفتاح السعادة ١/ ١٨٤ تاريخ بغداد ١١/ ٣٩٨، إرشاد الأريب ٥/ ١٤٩ - ١٦٨، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢٣، لسان الميزان ٤/ ٢٢١، جمهرة أنساب العرب ٩٨، إنباه الرواة ٢/ ٣٥١

وَلاَ يُعْطِيهِ الرَّوْنَقَ وَالْحَلاَوَةَ إلاَّ كَثْرَةُ الْمَحْفُوظِ. فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عُدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ وَاجْتِنَابُ الشِّعْرِ أَوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ. ثُمَّ بَعْدَ الإِمْتِلاَءِ مِنَ الْحِفْظِ وشَحْذِ الْقَرِيحَةِ لِلتَّسَبُّحِ عَلَى الْمِنْوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْسُخُ. وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظِ لِتُمْحَى رُسُومُهُ الْحَرْفِيَّةُ الظَّاهِرَةُ إِذْ هِيَ صَادَّةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ الأُسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مِنْوَالٌ يَأْخُذُ فِي النَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً. ثُمَّ لاَبُدَّ لَهُ مِنَ الْخَلْوَةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالأَزْهَارِ وَكَذَا الْمَسْمُوعُ لِاسْتِثَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلاَذِّ السُّرُورِ. ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ اجْمَعَ لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمِنْوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ. قَالُوا وَخَيْرُ الأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكَرِ عِنْدَ الْهُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هؤُلاَءِ الْجَمَامُ. وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِثِهِ الْعِشْقَ وَالإِنْشَاءَ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيقٍ[1] فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ

(١) هوَ الحسن بن رشيق القيروانى أبو على أديب، نقاد باحث، كان أبوهم من موالى الأزد. ولد فى المسيلة "بالمغرب" سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠ م وتعلم الصياغة ثم مال إلى الأدب وقال الشعر فرحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ ومدح ملكها واشهر فيها وحدثت فتنة فانتقل إلى جزيرة صقلية، وأقام بمازر Mazzara إحدى مدنها إلى أن توفى سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م. من كتبه "العمدة فى صناعة الشعر ونقده" =

وَهُوَ الْكِتَـابُ الَّذِى انْفَرَدَ بِهذِهِ الصَّنَاعَةِ وَإِعْطَارِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَـا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْـدَهُ مِثْلَهُ. قَالُوا فَإِنِ اسْـتُصْعِبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلاَ يُكْرِهْ نَفْسَـهُ عَلَيْهِ. وَلْيَكُنْ بِنَاءُ الْبَيْـتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعُـبَ عَلَيْهِ وَضْعُهَا فِى مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِىءُ نَافِـرَةً قَلِقَـةً. وَإِذَا سَمَحَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِـبِ الَّذِى عِنْدَهُ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلاَّ الْمُنَاسَـبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخَلاَصِ مِنْـهُ بِالتَّنْقِيحِ وَالنَّقْدِ وَلاَ يَضَنُّ بِهِ عَلَى التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الإِجَادَةَ فَإِنَّ الإِنْسَـانَ مَفْتُونٌ بِشِـعْرِهِ إِذْ هُوَ بَنَاتُ فِكْرِهِ وَاخْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلاَ يَسْـتَعْمِلَ فِيهِ مِنَ الْكَلاَمِ إِلاَّ الأَفْصَحَ مِـنَ التَّرَاكِيبِ وَالْخَالِصَ مِنَ الضَّرُورَاتِ اللِّسَـانِيَّةِ فَلْيُهَجِّرْهَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِالْكَلاَمِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلاَغَةِ. وَقَدْ حَظَرَ أَئِمَّةُ اللِّسَـانِ عَلَـى الْمُوَلَّدِ ارْتِكَابَ الضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِى سَعَةٍ بِالْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى مِنَ الْمَلَكَةِ. وَيَجْتَنِبْ أَيْضًا الْمُعَقَّدَ مِنَ التَّرَاكِيبِ جُهْدَهُ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ

=و"قراضة الذهب" فى النقد و "الشـذوذ فى اللغة" و "أنموذج الزمان فى شعراء القـيروان" و"ديوان شـعره" و "ميـزان العمل فى تاريخ الدول" و "شـرح موطأ مالك" و"الروضة الموشية فى شعراء المهدية" و "تاريخ القيروان" و "المساوئ فى السرقات الشعرية".

انظـر المزيـد فى: وفيـات الأعـيان ١/ ١٣٣، إنباه الـرواة ١/ ٢٩٨، الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ٩٩.

تُسَابِقُ الْفَاظُهُ إِلَى الْفَهْمِ وَكَذلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِى فِى الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهَا نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى الْفَهْمِ وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنْ ذلِكَ مَا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ طِبْقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْنَى فَإِنْ كَانَتِ الْمَعَانِى كَثِيرَةً كَانَ خَشْوًا وَاسْتُعْمِلَ الذِّهْنُ بِالْغَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنَعَ الذَّوْقَ عَنِ اسْتِيفَاءِ مُدْرَكِهِ مِنَ الْبَلاَغَةِ. وَلاَ يَكُونُ الشِّعْرُ سَهْلاً إِلاَّ إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى الذِّهْنِ وَلِهذَا كَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللهُ يَعِيبُونَ شِعْرَ أَبِى بَكْرِ بْنِ خَفَاجَةَ[1] شَاعِرِ شَرْقِ الأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَازْدِحَامِهَا فِى الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعِيبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّىءِ وَالْمَعَرِّىِ[2] بِعَدَمِ

(١) هو إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله خفاجة الهوارى الأندلسى شاعر عزل، من الكتاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة وهو من أهل جزيرة شقر Alciya من أعمال بلنسية فى شرق الأندلس، لم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم على الأدب وأهله. له "ديوان شعر" ولد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م ومات سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م.

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ١٤، بغية الملتمس ٢٠٢، صفة جزيرة الأندلس ١٠٣.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى شاعر فيلسوف ولد سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م ومات فى معرة النعمان سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدرى صغيرًا فعمى فى السنة الرابعة من عمره وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر. وهو من بيت علم كبيرة فى بلده. ولما مات وقف على قبره ٨٤٥ شاعرًا يرثونه. وكان على بن عبدالله بن أبى هاشم. وكان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب. أما شعره وهو ديوان حكمته =

انْسِجِ عَلَى الأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلاَمًا مَنْظُومًا نَازِلاً عَنْ طَبَقَةِ الشِّعْرِ وَالْحَاكِمُ بِذلِكَ هُوَ الذَّوْقُ. وَلْيَتَجَنَّبِ الشَّاعِرُ أَيْضًا الْحُوشِيَّ مِنَ الأَلْفَاظِ وَالْمُقَصَّرَ وَكذلِكَ السُّوقِيَّ الْمُبْتَذَلَ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْكَلاَمِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلاَغَةِ أَيْضًا فَيَصِيرُ مُبْتَذَلاً وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ الإِفَادَةِ كَقَوْلِهِم النَّارُ حَارَّةٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَنَا وَبِمِقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ الإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رُتْبَةِ الْبَلاَغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ. وَلِهذَا كَانَ الشِّعْرُ فِي الرَّبَانِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ الإِجَادَةِ فِي الْغَالِبِ وَلاَ يَحْذِقُهُ إِلاَّ الْفُحُولُ لأَنَّ مَعَانِيَهَا مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَذَلَةً لِذلِكَ. وَإِذَا تَعَذَّرَ الشِّعْرُ بَعْدَ هذَا كُلِّهِ فَلْيُرَاضُهُ وَيُعَاوِدْهُ فَإِنَّ الْقَرِيحَةَ مِثْلُ الضَّرْعِ بَدِرٌّ بِالإِمْتِرَاءِ وَيَجِفُّ بِالتَّرْكِ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهذِهِ الصِّنَاعَةُ وَتَعَلُّمُهَا مُسْتَوْفِي فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لِابْنِ رَشِيقٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرَنَا بِحَسْبِ الْجُهْدِ وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ ذلِكَ فَعَلَيْهِ بِذلِكَ الْكِتَابِ فَفِيهِ الْبُغْيَةُ مِنْ ذلِكَ وَهذِهِ نُبْذَةٌ كَافِيَةٌ وَاللهُ الْمُعِينُ.

(عن ابن خلدون)

= وفلسفته، فثلاثة أقسام "لزوم ما لا يلزم" ويعرف باللزوميات و "سقط الزند" و "ضوء السقط" وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية. وأما كتبه فكثيرة وفهرسها في معجم الأدباء.

انظر المزيد في: لسان الميزان ١/ ٢٠٣، إعلام النبلاء ٤/ ٧٧ و ١٨٠ و ٣٧٨، إنباه الرواة ١/ ٤٦، تتمة اليتيمة ٩، معجم الأدباء ١/ ١٨١، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٥٧.

قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدِ الْبُحْتُرِيُّ كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي أَرُومُ الشِّعْرَ وَكُنْتُ أَرْجِعُ فِيهِ إِلَى طَبْعِي وَلَمْ أَكُنْ أَقِفُ عَلَى تَسْهِيلِ مَأْخَذِهِ وَوُجُوهِ اقْتِضَابِهِ حَتَّى قَصَدْتُ أَبَا تَمَّامٍ وَانْقَطَعْتُ فِيهِ إِلَيْهِ وَاتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ لِي يَا أَبَا عُبَادَةَ تَخَيَّرِ الأَوْقَاتَ وَأَنْتَ قَلِيلُ الْهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ الْغُمُومِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَادَةَ جَرَتْ فِي الأَوْقَاتِ أَنْ يَقْصِدَ الإِنْسَانُ لِتَأْلِيفِ شَيْءٍ أَوْ حِفْظِهِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ الرَّاحَةِ وَقِسْطَهَا مِنَ النَّوْمِ. وَإِنْ أَرَدْتَ التَّشْبِيبَ فَاجْعَلِ اللَّفْظَ رَقِيقًا وَالْمَعْنَى رَشِيقًا وَأَكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ الصَّبَابَةِ وَتَوَجُّعِ الْكَآبَةِ وَقَلَقِ الأَشْوَاقِ وَلَوْعَةِ الْفِرَاقِ. فَإِذَا أَخَذْتَ فِي مَدِيحِ سَيِّدٍ ذِي أَبَادٍ فَاشْهَرْ مَنَافِبَهُ وَأَظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَأَبِنْ مَعَالِمَهُ وَشَرِّفْ مَقَامَهُ وَنَضِّدِ الْمَعَانِيَ وَاحْذَرِ الْمَجْهُولَ مِنْهَا وَإِيَّاكَ أَنْ تَستِينَ شِعْرَكَ بِالأَلْفَاظِ الرَّدِيئَةِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ يَقْطَعُ الثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ الأَجْسَادِ. وَإِذَا عَارَضَكَ الضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلاَ تَعْمَلْ شِعْرَكَ إِلاَّ وَأَنْتَ فَارِغُ الْقَلْبِ وَاجْعَلْ شَهْوَتَكَ لِقَوْلِ الشِّعْرِ الذَّرِيعَةَ إِلَى حُسْنِ نَظْمِهِ فَإِنَّ الشَّهْوَةَ نِعْمَ الْمُعِينُ. وَجُمْلَةُ الْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ شِعْرِ الْمَاضِينَ فَمَا اسْتَحْسَنَ الْعُلَمَاءُ فَاقْصِدْهُ وَمَا تَرَكُوهُ فَاجْتَنِبْهُ مُرْشَدٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. قَالَ فَأَعْمَلْتُ نَفْسِي فِي مَا قَالَ فَوَقَفْتُ عَلَى السِّيَاسَةِ. (من كتاب زهر الآداب)

الْفصْلُ السَّابِعُ
فِى الْفَصَاحَةِ وَالْبَلاغَةِ وَفِيهِ قِسْمَانِ
الْقِسْمُ الأَوَّلُ
فِى الْفَصَاحَةِ

إِعْلَمْ أَنَّ هذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى النَّاهِجِ وَلَمْ يَـزَلِ الْعُلَمَـاءُ مِنْ قَدِيمِ الْوَقْـتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِـرُونَ الْقَوْلَ فِيهِ وَالْبَحْـثَ عَنْهُ وَلَمْ أَجِدْ مِنْ ذلِكَ مَـا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ إِلاَّ الْقَلِيلَ وَغَايَةُ مَا يُقَـالُ فِى هذَا الْبَابِ أَنَّ الْفَصَاحَةَ هِىَ الظُّهُورُ وَالْبَيَانُ فشَـى أَصْلِ الْوَضْـعِ اللُّغَوِىِّ يُقَالُ أَفْصَحَ الصُّبْحُ إِذَا ظَهَرَ ثُمَّ إِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذلِكَ وَلاَ يَكْشِفُونَ عَنِ السِّرِّ فِيهِ. وَبِهذَا الْقَوْلِ لاَ تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ الْفَصَاحَـةِ لأَنَّهُ يُعْـتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِـنَ الإِعْتِرَاضَاتِ. أَحَدُهَا أَنَّـهُ إِذَا لَمْ يَكُـنِ اللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِنًا لَمْ يَكُـنْ فَصِيحًا ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ وَتَبَـيَّنَ صَارَ فَصِيحًا. أَلْوَجْهُ الثَّانِى أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ الْفَصِيحُ هُوَ الظَّاهِرَ الْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذلِكَ بِالنِّسَـبِ وَالإِضَافَاتِ إِلَى الأَشْـخَاصِ فَـإِنَّ اللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِـرًا لِزَيْدٍ وَلاَ يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ إِذَنْ فَصِيـحٌ عِنْدَ هذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْـدَ هذَا. وَلَيْسَ كَذلِكَ بَل الْفَصِيحُ

هُـوَ فَصِيـحٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ لاَ خِلاَفَ فِيهِ بِحَـالٍ مِنَ الأَحْوَالِ لأَنَّهُ إِذَا تَحَقَّـقَ حَـدُّ الْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِـيَ لَمْ يَبْقَ فِي اللَّفْظِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِـهِ خِلاَفٌ. أَلْوَجْه الثَّالِثُ أَنَّهُ إِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ السَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذلِـكَ لأَنَّ الْفَصَاحَـةَ وَصْفُ حُسْـنٍ لِلَّفْظِ لاَ وَصْـفُ قُبْحٍ. فَهذِهِ الإِعْتِرَاضَـات الثَّلاَثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ إِنَّ اللَّفْظَ الْفَصِيحَ هُوَ الظَّاهِـرُ الْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيـلٍ. وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى أَقْوَالِ النَّاسِ فِي هذَا الْبَابِ مَلَكَتْنِـي الْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا أُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلاَبَسَـتِي هذَا الْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي إِيَّاهُ انْكَشَفَ لِي السِّرُّ فِيهِ وَسَأُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هذَا وَأُحَقِّقُ الْقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ إِنَّ الْكَلاَمَ الْفَصِيـحَ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ وَأَعْنِـي بِالظَّاهِرِ الْبَيِّنِ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ مَفْهُومَةً لاَ تُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى اسْـتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ. وَإِنَّمَا كَانَتْ بِهذِهِ الصِّفَةِ لأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ الإِسْتِعْمَالِ بَيْنَ أَرْبَابِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلاَمِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ الإِسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي الْـكَلاَمِ دُونَ غَيْرِهَـا مِنَ الأَلْفَاظِ لِمَكَانِ حُسْـنِهَا. وَذلِكَ أَنَّ أَرْبَابَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ غَرْبَلُوا اللُّغَةَ بِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَاخْتَارُوا الْحَسَـنَ مِنَ الأَلْفَاظِ فَاسْـتَعْمَلُوهُ وَتَقَوُّا الْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ الإِسْتِعْمَالِ سَبَبُ اسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَاسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ

ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا. فَالْفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ الأَلْفَاظِ هُوَ الْحَسَنُ. فَإِنْ قِيلَ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ أَرْبَابُ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ الْحَسَنَ مِنَ الأَلْفَاظِ حَتَّى اسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا الْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ. قُلْتُ فِي الْجَوَابِ إِنَّ هذَا مِنَ الأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ الَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لأَنَّ الأَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ الأَصْوَاتِ فَالَّذِي يَسْتَلِذُّهُ السَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ الْحَسَنُ وَالَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ هُوَ الْقَبِيحُ. أَلا تَرَى أَنَّ السَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ الْبُلْبُلِ مِنَ الطَّيْرِ وَصَوْتَ الشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ الْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ الْحِمَارِ وَلا يَجِدُ ذلِكَ فِي صَهِيلِ الْفَرَسِ. وَالأَلْفَاظُ جَارِيَةٌ هذَا الْمَجْرَى فَإِنَّهُ لا خِلافَ فِي أَنَّ لَفْظَةَ الْمُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا السَّمْعُ وَأَنَّ لَفْظَةَ الْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا السَّمْعُ. وَهذِهِ اللَّفْظَاتُ الثَّلاثُ مِنْ صِفَةِ الْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَمَعَ هذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ الْمُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَأْلُوفَتَيِ الإِسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ الْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لا يُسْتَعْمَلُ وَإِنِ اسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْفَصَاحَةِ أَوْ مَنْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا. (عن المثل السائر)

الْقِسْمُ الثَّانِى

فِى الْبَلاَغَةِ

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِىُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَبِيبِ الْبَصْرِىُّ الْمَاوَرْدِى[1] فِى لَيْسَ يَصِحُّ اخْتِيَارُ الْكَلاَمِ إِلاَّ لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَـهُ بِالْبَلاَغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ الْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلاَ يَأْتِىَ بِكَلاَمٍ مُسْـتَكْرَةِ اللَّفْظِ وَلاَ مُخْتَلِّ الْمَعْنَى لأَنَّ الْبَلاَغَةَ لَيْسَـت عَلَى مَعَانٍ مُفْـرَدةٍ وَلاَ لأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ وَإِنَّمَا الْبَلاَغَةُ تَكُونُ بِالْمَعَانِى الصَّحِيحَةِ

---

(١) هو على بن محمد بن حبيب أبو الحسـن الماوردى أقضى قضاة عصره من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، ولد فى البصرة سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م وانتقل إلى بغداد وولى القضاء فى بلدان كثيرة ثم جعل "أقضى القضاة" فى أيام القائم بأمر الله العباسـى وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، وله المكانة الرفيعة عند الخلفاء، وربما توسط بينهم وبين الملوك وكبار الأمراء فى ما يصلح به خللا أو يزيل خلافًا. نسبته إلى بيع ماء الورد ووفاته ببغداد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م. له عدة مصنفات منها "أدب الدنيا والدين" و "الأحكام السـلطانية" و"العيون والنكت" و "الحـاوى" و "نصيحة الملوك" و "تسـهيل النظر" فى سياسـة الحكومات و "أعـلام النبـوة" و "معرفـة الفضائل" و "الأمثـال والحكـم" و "الإقناع" فقه، "قانون الوزارة" "وسياسة الملك" وغير ذلك.

انظر المزيد فى: طبقات السـبكى ٩/ ٣٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٣٢٦، شذرات الذهب ٣/ ٢٨٥، آداب اللغة ٢/ ٣٣٣، مفتاح السعادة ٢/ ١٩٠.

مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ الأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ الْمَعَانِي هِيَ الْبَلاَغَةُ وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ مَا الْبَلاَغَةُ؟ قَالَ اخْتِيَارُ الْكَلاَمِ وَتَصْحِيحُ الأَقْسَامِ. وَقِيلَ ذٰلِكَ لِلرُّومِيِّ فَقَالَ حُسْنُ الإِخْتِصَارِ عِنْدَ الْبَدِيهَةِ وَالْغَزَارَةِ يَوْمَ الإِطَالَةِ. وَقِيلَ لِلْعَرَبِيِّ فَقَالَ مَا حَسُنَ إِيجَازُهُ وَقَلَّ مَجَازُهُ. وَقِيلَ لِلْبَدَوِيِّ فَقَالَ مَا دُونَ السِّحْرِ وَفَوْقَ الشِّعْرِ يَفُتُّ الْخَرْدَلَ وَيَحُطُّ الْجَنْدَلَ. وَقِيلَ لِلْحَضَرِيِّ فَقَالَ مَا كَثُرَ إِعْجَازُهُ وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَأَعْجَازُهُ. وَسَأَلَ الْحجَّاجُ ابْنَ الْقَرْيَةِ[1] عَنِ الإِيْجَازِ قَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلاَ تُبْطِيءَ وَأَنْ تُصِيبَ فَلاَ تُخْطِيءَ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

خَيْرُ الْكَلاَمِ قَلِيلُ ... عَلَى كَثِيرِ دَلِيلُ
وَالْعِيُّ مَعْنىً قَصِيرٌ ... يَحْوِيهِ لَفْظٌ طَوِيلُ

---

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي أحد بلغاء الدهر، خطيب يضرب به المثل: يقال "أبلغ من ابن القرية" القرية أمه. كان أعرابيًا أميًا، يتردد إلى عين التمر "غربي الكوفة" فاتصل بالحجاج فأعجب بحسن منطقه فأوفده على عبد الملك بن مروان. ولما خلعَ ابن الأشعث الطاعة بسجستان بعثه الحجاج إليه رسولاً، فالتحق به وشهد معه وقعة دير الجماجم "بظاهر الكوفة" وكان شجاعًا فلما انهزم ابن الأشعث سيق أيوب إلى الحجاج أسيرًا فقال له الحجاج: والله لأزيرنك جهنم، قال: فأرحني فأني أجد حرها، فأمر به فضربت عنقه. ولما رآه قتيلا قال: لو تركناه حتى تسمع من كلامه وأخباره كثيرة.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٨٢، تاريخ ابن عساكر ٣/ ٢١٦، تاريخ الطبري ٨/ ٣٧، تاريخ الإسلام ٣/ ٢٣٤.

وَأَمَّا صِحَّةُ الْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلاَثَةِ أَوْجُهٍ أَحَدُهَا إِيْضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لاَ تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلاَ مُجْمَلَةٍ. وَالثَّانِي اسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لاَ تَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلاَ يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا. وَالثَّالِثُ صِحَّةُ مُقَابَلاَتِهَا وَالْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا مُقَابَلَةُ الْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هذِهِ الْمُقَارَبَةُ لأَنَّ الْمَعَانِي تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً. وَالثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ الْمُقَابَلَةِ وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلاَّ أَحَدُ هذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ الْمُوَافَقَةِ فِي الإِئْتِلاَفِ وَالْمُضَادَّةِ مَعَ الإِخْتِلاَفِ. فَأَمَّا فَصَاحَةُ الأَلْفَاظِ فَتَكُونُ بِثَلاَثَةِ أَوْجُهٍ أَحَدُهَا مُجَانَبَةُ الْغَرِيبِ الْوَحْشِيِّ حَتَّى لاَ يُمُجَّهُ سَمْعٌ وَلاَ يَنْفِرَ مِنْهُ طَبْعٌ. وَالثَّانِي تَنَكُّبُ اللَّفْظِ الْمُبْتَذَلِ وَالْعُدُولُ عَنِ الْكَلاَمِ الْمُسْتَرْذَلِ حَتَّى لاَ يَسْتَسْقِطَهُ خَاصِّيٌّ وَلاَ يَنْبُوَ عَنْهُ فَهْمُ عَامِّيٍّ كَمَا قَالَ الْجَاحِظُ فِي الْبَيَانِ. أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَرْ قَوْمًا أَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي الْبَلاَغَةِ مِنَ الْكُتَّابِ وَذلِكَ انَّهُمْ قَدِ الْتَمَسُوا مِنَ الأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحْشًا وَلاَ سَاقِطًا عَامِّيًا. وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ. أَمَّا الْمُطَابَقَةُ فَهِيَ أَنْ تَكُونَ الأَلْفَاظُ كَالْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلاَ تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلاَ تَنْقُصُ عَنْهَا. وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ[1] فِي

(١) هو بشر بن المعتمر البغدادى أبوسهل فقيه معتزلى مناظر، من أهل الكوفة قال الشريف المرتضى: يقال: إن جميع معتزله بغداد كانوا من مستجيبية تنسب إليه الطائفة "البشرية" منهم. له مصنفات فى الاعتزال. مات ببغداد سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م. =

وَصِيَّتِـهِ فِى الْبَلاَغَةِ إِذَا لَمْ تَجِـدِ اللَّفْظَةَ وَاقِعَةً مَوْقِعَهَا وَلاَ صَائِرَةً إِلَى مُسْـتَقَرِّهَا وَلاَ حَالَّةً فِى مَرْكَزِهَـا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِى مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلاَ تُكْرِهْهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِى مَكَانِهَا نَافِرَةً عَـنْ مَوْضِعِهَا فَلاَ تُكْرِهْهَا عَلَـى الْقَرَارِ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ الشِّـعْرِ الْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِـتَرْكِ ذلِكَ أَحَدٌ وَإِذَا أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فِيهِمَا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيبًا مِنْهُ وَأَزْرَى عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ فَوْقَهُ. وَأَمَّا الْمُنَاسَبَةُ فَهِـىَ أَنْ يَكُـونَ الْمَعْنَى يَلِيقُ بِبَعْضِ الأَلْفَاظِ إِمَّا لِعُرْفٍ مُسْـتَعْمَلٍ أَوْ لِاتِّفَاقٍ مُسْتَحْسَنٍ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتَ تِلْكَ الْمَعَانِىَ بِغَيْرِ تِلْكَ الأَلْفَاظِ كَانَـتْ نَافِرَةً عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ أَفْصَحَ وَأَوْضَحَ لاِعْتِيَادِ مَا سِـوَاهَا. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: لاَ يَكُونُ الْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلاَمِهِ أَسْبَقَ إِلَى فَهْمِكَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى سَمْعِكَ.

(من كتاب أدب الدنيا والدين)

= انظر المزيد فى: أمالى المرتضى ١/ ١٣١.

الْفصْلُ الثَّامِنُ

فِى الْمَبَادِىءِ وَالإِفْتِتَاحَاتِ

إِعْلَـمْ أَنَّ حَقِيقَةَ هذَا النَّوْعِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ الْكَلاَمِ مِنَ الشِّـعْرِ أَوِ الرَّسَائِلِ دَالاً عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ ذلِكَ الْكَلاَمِ إِنْ كَانَ فَتْحًا فَفَتْحًـا وَإِنْ كَانَ هَنَـاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَـزَاءً وَكَذلِكَ يَجْرِى الْحُكْـمُ فِى غَـيْرِ ذلِكَ مِنَ الْمَعَانِـى وَفَائِدَتُهُ أَنْ يُعْـرَفَ مِنْ مَبْدإِ الْـكَلاَمِ مَا الْمُرَادُ بِهِ. وَحُكْمُ هـذَا النَّوْعِ وَالْقَاعِدَةُ الَّتِى يُبْنَى عَلَيْهَا أَسَاسُهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ إِذَا نَظَمَ قَصِيدَةً أَنْ يَنْظُرَ فَإِنْ كَانَتْ مَدِيحًا صِرْفًا لاَ يَخْتَصُّ بِحَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ يَفْتَتِحَهَا بِغَزَلٍ أَوْ لاَ مَفْتَتِحَهَا بِغَزَلٍ بَلْ يَرْتَجِلَ الْمَدِيحَ ارْتِجَالاً مِنْ أَوَّلِهَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

إِنْ حـارَتِ الأَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ
فِـى ذَا الْمَقَـامِ فَعُذْرُهَـا مَقْبُـولُ
سَامِحْ بِفَضْلِكَ مَادِحِيكَ فَمَا لَهُمْ
أَبَـدًا إِلَـى مَـا تَسْتَحِيـقُّ سَبِيـلُ

إِنْ كَانَ لاَ يُرْضِيكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ

فَالْمُحْسِنُونَ إِذَنْ لَدَيْكَ قَلِيلُ

فَإِنَّ هَذَا الشَّاعِرَ ارْتَجَلَ الْمَدِيحَ مِنَ الْقَصِيدَةِ فَأَتَى بِهِ كَمَا تَرَى حَسَنًا لاَئِقًا. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصِيدُةُ فِي حَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ كَفَتْحٍ مُقْفَلٍ أَوْ هَزِيمَةِ جَيْشٍ أَوْ غَيْرِ ذلِكَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُبْدأَ فِيهِ بِغَزَلٍ وَإِنْ ذلِكَ دَلَّ عَلَى ضُعْفِ قَرِيحَةِ الشَّاعِرِ وَقُصُورِهِ عَنِ الْغَابَةِ أَوْ عَلَى جَهْلِهِ بِوَضْعِ الْكَلاَمِ فِي مَوَاضِعِهِ فَإِنْ قِيلَ إِنَّكَ قُلْتَ يَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ كَذَا وَكَذَا فَلِمَ ذلِكَ قُلْتُ فِي الْجَوَابِ إِنَّ الْغَزَلَ رِقَّةُ مَحْضَةٌ وَالأَلْفَاظَ الَّتِي تُنْظَمُ فِي الْحَوَادِثِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا مِنْ فَحْلِ الْكَلاَمِ وَمَتِينِ الْقَوْلِ وَهِيَ ضِدُّ الْغَزَلِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الأَسْمَاعَ تَكُونُ مُتَطَلِّعَةً إِلَى مَا يُقَالُ فِي تِلْكَ الْحَوَادِثِ وَالإِبْدَاءِ بِالْخَوْضِ فِي ذِكْرِهَا لاَ الإِبْتِدَاءِ بِالْغَزَلِ إِذِ الْمُهِمُّ وَاجِبُ التَّقْدِمِ.

وَمِنْ أَدَبِ هذَا النَّوْعِ أَنْ لاَ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ فِي افْتِتَاحِ قَصِيدَةٍ بِالْمَدِيحِ مَا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ. وَهذَا يَرْجِعُ إِلَى أَدَبِ النَّفْسِ لاَ إِلَى أَدَبِ الدَّرْسِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْتَرَزَ مِنْهُ فِي مَوَاضِعِهِ كَوَصْفِ الدِّيَارِ بِالدُّثُورِ وَالْمَنَازِلِ بِالْعَفَاءِ وَغَيْرِ ذلِكَ مِنْ تَشَتُّتِ الأُلاَّفِ وَذَمِّ الزَّمَانِ وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي التَّهَانِئِ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَشَدَّ قُبْحًا وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ ذلِكَ فِي الْخُطُوبِ النَّازِلَةِ وَالنَّوَائِبِ الْحَادِثَةِ وَمَتَى كَانَ الْكَلاَمُ فِي الْمَدِيحِ مُفْتَتَحًا بِشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ تَطَيَّرَ مِنْهُ سَامِعُهُ.

وَإِنَّمَا خُصَّتِ الإِبْتِدَاءَاتُ بِالإِخْتِيَارِ لأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَطْرُقُ السَّمْعَ مِنَ الْكَلاَمِ فَإِذَا كَانَ الإِبْتِدَاءُ لاَئِقًا بِالْمَعْنَى الْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَفَّرَتِ الدَّوَاعِي عَلَى اسْتِمَاعَةِ. وَمِنْ قَبِيحِ الإِبْتِدَاءَاتِ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ لأَنَّ مُقَابَلَةَ الْمُمْدَحِ بِهَذَا الْخِطَابِ لاَ خَفَاءَ بِقُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّام تَجَرَّعْ أَسًى قَدْ أَقْفَرَ الأَجْرَعُ الْفَرْدُ. وَإِنَّمَا أَلْقَى أَبَا تَمَّام فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكْرُوهِ تَتَبُّعُهُ لِلتَّجْنِيسِ بَيْنَ تَجَرَّعْ وَالأَجْرَعِ. وَكَذَلِكَ اسْتُقْبِحَ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ فُؤَادٌ مَلاَهُ الْحُزْنُ حَتَّى نَصَدَّعَا. فَإِنَّ ابْتِدَاءَ الْمَدِيحِ بِمِثْلِ هَذَا طِيرَةٌ يَبْنُو عَنْهَا السَّمْعُ وَهُوَ أَجْدَرُ بِأَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءَ مَرْثِيَةٍ لاَ مَدِيحٍ وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ يَخْفَى هَذَا عَلَى مِثْلِ الْبُحْتُرِيِّ وَهُوَ مِنْ مُفْلِقِيِّ الشُّعَرَاءِ. وَحُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَغَ الْمُعْتَصِمُ مِنْ بِنَاءِ قَصْرِهِ بِالْمَيْدَانِ جَلَسَ فِيهِ وَجَمَعَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِي زِينَتِهِمْ فَمَا رَأَى النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَاسْتَأْذَنَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ[1] فِي الإِنْشَادِ فَأَذِنَ لَهُ فَأَنْشَدَ شِعْرًا حَسَنًا أَجَادَ فِيهِ

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمى الموصلى أبو محمد ابن النديم من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، راويًا للشعر حافظًا للأخبار، شاعرًا، له تصانيف، من أفراد الدهر أدبًا وظرفًا وعلمًا، فارسى الأصل، مولده سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧٢ م ووفاته ببغداد سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م وعمى قبل موته بسنتين، نادم الرشيد والمأمون والواثق العباسيين. ولما مات نعى إلى المتوكل فقال: ذهب صدر عظيم من جمال =

إلاَّ أَنَّه استَتْفَتَحَهُ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَعَفائِهَا فَقَالَ:

يَا دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى وَمَحَاكِ

يَالَيْتَ شِعْرِى مَا الَّذِى أَبْلاَكِ

فَتَطَيَّرَ الْمُعْتَصِمُ[1] بِذلِكَ وَتَغَامَزَ النَّاسُ عَلَى إِسْحاقَ كَيْفَ ذَهَبَ

= الملك وبهائه وزينته وألف كتبًا كثيرة، قال ثعلب: رأيت لإسحاق الموصلى ألف جزء من لغات العرب كلها سماعة من تصانيفه "كتاب أغانيه" التى غنى بها، و"أخبار عزة الميلاد" و "أغانى معبد" و "أخبار ذى الرمة" و "الأختيار من الأغانى" ألف للواثق و "مواريث الحكماء"، و " جواهر الكلام" و "الرقص والزفن" و "الندماء" و "النغم والإيقاع" و "قيان الحجاز" و "النوادر المتخيرة".

انظر المزيد فى: الفهرست ١/ ١٤٠، وفيات الأعيان ١/ ٦٥، سمط اللآلى ١٣٧ و ٢٠٩ و ٥٠٩، الأغانى ٥/ ٢٦٨ - ٤٣٥، لسان الميزان ١/ ٣٥٠، تاريخ بغداد ٦/ ١٣٨ إبناه الرواة ١/ ٢١٥، الذريعة ١/ ٣٢٠، نزهة الألبا ٢٧٧.

(١) وهو محمد بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور أبو إسحاق المعتصم بالله العباسى خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة، بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون وبعهد منه وكان بطرسوس. وعاد إلى بغداد بعد سبعة أسابيع فى السنة نفسها. وكان قوى الساعد، يكسر زند الرجل بين أصبعيه ولا يعمل فى جسمه الأسنان وكره التعليم فى صغره، فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أميًا وهو فاتح عمورية Amoyium من بلاد الروم الشرقية فى خبر مشهور، وهو بانى مدينة سامرا سنة ٢٢٢ هـ حين ضاقت بغداد بجنده وهو أول من أضاف اسمه اسم الله تعالى من الخلفاء، فقيل "المعتصم بالله" وكان لين العريكة رضى الخلق، اتسع ملكه جدًا. وكان له سبعون ألف مملوك. خلافته ٨ سنين و ٨ أشهر، وخلف ٨ بنين و ٨ بنات وعمره ٤٨ سنة. مات بسامرا سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م وكان مولده سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م. وكان أبيض أصهب حسن الجسم مربوعًا طويل اللحية. =

عَلَيْهِ مِثْلُ ذٰلِكَ مَعَ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ وَطُولِ خِدْمَتِهِ لِلْمُلُوكِ. فَإِذَا أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يَذْكُرَ دَارًا فِي مَدِيحِهِ فَلْيَذْكُرْ كَمَا ذَكَرَ أَشْجَعُ السُّلَمِيُّ[1] حَيْثُ قَالَ:

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامُ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الأَيَّامُ

وَمَا أَجْدَرَ هٰذَا الْبَيْتَ بِمُفْتَتَحِ شِعْرِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَنْشَدَهُ لِلْمُعْتَصِمِ فَإِنَّهُ لَوْ ذَكَرَ هٰذَا أَوْ جَرَى مَجْرَاهُ لَكَانَ حَسَنًا لَائِقًا. وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ أَحْذَقِ الشُّعَرَاءِ فَقَالَ مَنْ أَجَادَ الإِبْتِدَاءَ وَالْمَطْلَعَ. أَلَا تَرَى إِلَى قَصِيدَةِ أَبِي نُوَاسٍ الَّتِي أَوَّلُهَا:

=انظر المزيد: الكامل ٦/ ١٤٨ – ١٧٩، تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٧، فوات الوفيات ٢/ ٢٧٠، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٢، مروج الذهب ٢/ ٢٦٩ – ٢٧٨، البدء والتاريخ ٦/ ١١٤، تاريخ الطبري ٦/ ١١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٦، النبراس ٦٣ – ٧٣..

(١) هو أشجع بن عمرو السلمي أبو الوليد من بني سليم من قيس عيلان شاعر فحل كان معاصرًا لبشار. ولد باليمامة ونشأ في البصرة. وانتقل إلى الرقة واستقر ببغداد، مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد فأعجب الرشيد به، فأثر وحسنت حاله، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه سنة ١٩٥ هـ/ ٨١١ م وأخباره كثيرة.

انظر المزيد في: الأغاني ١٧/ ٣٠ – ٤٤، تهذيب ابن عساكر ٣/ ٥٩ – ٦٣، معاهد التنصيص ٤/ ٦٢، التبريزي ٢/ ١٦٩، تاريخ بغداد ٧/ ٤٥، الشعر والشعراء ٣٧٣، خزانة البغدادي ١/ ١٤٣، الموشح ٢٩٥.

يَا دَارُ مَا فَعَلَتْ بِكِ الأَيَّامُ

لَمْ يَبْقَ فِيكِ بَشَاشَةٌ تُسْتَامُ

فَإِنَّهَا مِنْ أَشْرَفِ شِعْرِهِ وَأَعْلاَهُ مَنْزِلَةً وَهِيَ فِيكِ بَشَاشَةٌ تُسْتَامُ فَإِنَّهَا مِنْ أَشْرَفِ شِعْرِهِ وَأَعْلاَهُ مَنْزِلَةً وَهِيَ مَعَ ذلِكَ مُسْتَكْرَهَةُ الإِبْتِدَاءِ لأَنَّهَا فِي مَدْحِ الْخَلِيفَةِ الأَمِينِ وَافْتِتَاحُ الْمَدِيحِ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَدُثُورِهَا مِمَّا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ وَلاَ سِيَّمَا فِي مُشَافَهَةِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَلِهذَا يُخْتَارُ فِي ذِكْرِ الأَمَاكِنِ وَالْمَنَازِلِ مَا رَقَّ لَفْظُهُ وَحَسُنَ النُّطْقُ بِهِ كَالْعُذَيْبِ وَالْغُوَيْرِ وَرَامَةَ وَبَارِقٍ وَالْعَقِيقِ وَأَشْبَاهِ ذلِكَ.

وَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الإِبْتِدَاءِ أَنْ لاَ يَكُونَ مِمَّا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ فَقَطْ فَإِنَّ مِنَ الإِبْتِدَاءَاتِ مَا يُسْتَقْبَحُ وَإِنْ لَمْ يُتَطَيَّرْ مِنْهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّام قَدْكَ أَتْئِبْ أَرْبَبْتَ فِي الْغُلَوَاءِ وَكَقَوْلِهِ ثِقِي جَمَحَاتِي لَسْتُ طَوْعَ مُؤَنِّبِي وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيءِ أَقَلُّ فَعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ. وَالْعَجَبُ أَنَّ هذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ الْمُفْلِقَيْنِ يَبْتَدِئَانِ بِمِثْلِ ذلِكَ وَلَهُمَا مِنَ الإِبْتِدَاءَاتِ الْحَسَنَةِ مَا أَذْكُرُهُ. أَمَّا أَبُو تَمَّام فَإِنَّهُ افْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْمُعْتَصِمَ عِنْدَ فَتْحِهِ مَدِينَةَ عَمُّورِيَّةَ فَقَالَ:

أَلسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَسُودُ الصَّحَائِفِ فِى
مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ[1]

فَلَمَّا فُتِحَتْ بَنَى أَبُو تَمَّامٍ مَطْلَعَ قَصِيدَتِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَجَعَلَ السَّيْفَ أَصْدَقَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِى خَبَّرَتْ بِإِمْتِنَاعِ الْبَلَدِ وَاعْتِصَامِهَا. وَقَوْلُهُ فِى أَوَّلِ مَرْثِيَةٍ:

أَصَمُّ بِكَ النَّاعِى وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا
وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَائِعًا

وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ فَإِنَّهُ أَكْثَرَ مِنَ الإِبْتِدَاءَاتِ الْحَسَنَةِ فِى شِعْرِه كَقَوْلِهِ فِى قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورًا وَكَانَ قَدْ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ سَيِّدِهِ نَزْغَةٌ فَبَدَأَ قَصِيدَتَهُ بِذِكْرِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فَقَالَ:

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادِى
وَأَذَا عَنْهُ أَلْسُنَ الْحُسَّادِ

وَهذا مِنْ بَدِيعِ الإِبْتِداءِ وَنَادِرِهِ. وَكَذلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ فِى سَيْفِ الدَّوْلَةِ[2] وَكَانَ ابْنُ الشُّمُشَقِيقِ حَلَفَ لَيَلْقَيَنَّهُ كِفَاحًا فَلَمَّا الْتَقَيَا

---

(١) ورد هذه الأبيات فى ديوانه ١/ ٤٠ - ٤١

(٢) هو على بن عبد الله بن سيف أو يوسف أبو الحسن سيف الدولة الأمير صاحب المتنبى وممدوحه يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع باب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر. ولد فى ميارفاقين سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م بديار بكر ونشأ شجاعًا مهذبًا عالى الهمة وملك واسطًا وعاد إلى حلب فملكها سنة =

لَمْ يُطِقْ ذٰلِكَ وَوَلَّى هَارِبًا فَافْتَتَحَ أَبُو الطَّيِّبِ قَصِيدَتَهُ بِفَحْوَى الأَمْرِ فَقَالَ:

عَقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ
مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ
وَفِي الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ
مَا دَلَّ أَنَّكَ فِي الْمِيعَادِ مُنْهَزِمُ

وَمِنْ الْبَدِيعِ النَّادِرِ فِي هٰذَا الْبَابِ قَوْلُهُ مُتَغَزِّلاً فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ الْقَافِيَّةِ وَهِيَ:

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ
تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَاقِي

وَهٰذَا الْقَدْرُ مِنَ الأَمْثِلَةِ كَافٍ لِلْمُتَعَلِّمِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

(انتهى ملخصًا ببعض تصرُّف عن المثل السائر)

= ٣٣٣ هـ وتوفى فيها سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م ودفن فى ميافارقين أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة. وكان كثير العطايا، مقربًا لأهل الأدب يقول الشعر الجيد الرقيق، وقد ينسب إليه ما ليس له. وهو أول من ملك حلب من بنى حمدان. وله أخبار كثيرة مع الشعراء خصوصًا المتنبى والسرى الرفاء والنامى والببغاء والوأواء وتلك الطبقة.

انظر المزيد فى: يتيمة الدهر ١/ ١٨ - ٢٢، الوفيات ١/ ٣٦٤، زبدة الحلب ١/ ١١١ - ١٥٢.

الفصلُ التَّاسِعُ

فِي التَّخلُّصِ وَالإِقْتِضَابِ

إِعْلَمْ أَنَّ التَّخَلُّصَ هُوَ أَنْ يَأْخُذَ مُؤَلِّفُ الْكَلَامِ فِي مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي فَبَيْنَا هُوَ فِيهِ إِذْ أَخَذَ فِي مَعْنًى آخَرَ غَيْرِهِ وَجَعَلَ الأَوَّلَ سَبَبًا إِلَيْهِ فَيَكُونُ بَعْضُهُ آخِذًا بِرِقَابِ بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْطَعَ كَلَامَهُ وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامًا آخَرَ بَلْ يَكُونُ جَمِيعُ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا أُفْرِغَ إِفْرَاغًا وَذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حِذْقِ الشَّاعِرِ وَقُوَّةِ تَصَرُّفِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ نِطَاقَ الْكَلَامِ تَضِيقُ عَلَيْهِ وَيَكُونُ مُتَّبِعًا لِلْوَزْنِ وَالْقَافِيَةِ فَلاَ تُؤَاتِيهِ الأَلْفَاظُ عَلَى حَسَبِ إِرَادَتِهِ. وَأَمَّا النَّاثِرُ فَإِنَّهُ مُطْلَقُ الْعِنَانِ يَمْضِي حَيْثُ شَاءَ فَلِذَلِكَ يَشُقُّ التَّخَلُّصُ عَلَى الشَّاعِرِ أَكْثَرَ مِمَّا يَشُقُّ عَلَى النَّاثِرِ.

وَأَمَّا الإِقْتِضَابُ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّخَلُّصِ وَذَاكَ أَنْ يَقْطَعَ الشَّاعِرُ كَلَامَهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامًا آخَرَ غَيْرَهُ مِنْ مَدِيحٍ أَوْ هَجَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَلاَ يَكُونُ لِلثَّانِي عِلاَقَةٌ بِالأَوَّلِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْعَرَبِ وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْمُخَضْرَمِينَ. وَأَمَّا الْمُحْدَثُونَ فَإِنَّهُمْ تَصَرَّفُوا فِي التَّخَلُّصِ فَأَبْدَعُوا وَأَظْهَرُوا مِنْهُ كُلَّ غَرِيبَةٍ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

يَقُولُ فِي قَومَسٍ صَحْبِي وَقَدْ أَخَذَتْ
مِنَّا السُّرَى وَخَطَى الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ
أَمَطْلِعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا
فَقُلْتُ كَلاَّ وَلكِنْ مَطْلَعِ الْجُودِ

وَقَوْلُهُ:

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِيُّ الْحُسْنِ سُنَّتَهَا
فَصَاغَهَا بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أُنُفَا
يُضْحِي الْعَذُولُ عَلَى تَأْنِيبِهِ كَلِفًا
بِعُذْرِ مَنْ كَانَ مَشْغُوفًا بِهَا كَلِفَا
وَدِّعْ فُؤَادَكَ تَوْدِيعَ الْفِرَاقِ فَمَا
أُرَاهُ مِنْ سَفَرِ التَّوْدِيعِ مُنْصَرِفَا
يُجَاهِدُ الشَّوْقَ طَوْرًا ثُمَّ يَجْذِبُهُ
جِهَادُهُ لِلْقَوَافِي فِشَى أَبِي دُلَفَا

وَمِمَّا جَاءَ مِنَ التَّخَلُّصَاتِ الْحَسَنَةِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي فِي قَصِيدَتِهِ الدَّالِيَّةِ:

خَلِيلَيَّ إِنِّي لاَ أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ
فَلِمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ
فَلاَ تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ
وَلكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

وَهذَا هُوَ الْكَلاَمَ الأَخِذُ بَعْضُهُ بِرِقَابِ بَعْضٍ أَلاَ تَرَى إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى مَـدْحِ الْمَمْدُوحِ فِى هـذِهِ الأَبْيَاتِ كَأَنَّهُ أُفْرِغَ فِـى قَالَبٍ وَاحِدٍ وَكَذلِكَ قَوْلُهُ أَيْضًا وَهُوَ مِنْ أَحْسَـنِ مَا أَتَى بِهِ مِنَ التَّخَلُّصَاتِ وَهُوَ فِى قَصِيدَتِهِ التَّائِيَّةِ:

وَمَطَالِبٍ فِيهَـا الْهَـلاَكُ أَتَيْتُهَـا
ثَبْـتَ الْجَنَـانِ كَأَنَّنِـى لَـمْ آتِهَـا
وَمَقَانِـبٍ بِمَقَانِـبٍ غَادَرْتُهَـا
أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِـنْ أَقْوَاتِهَـا
أَقْبِلْتُهَـا غُـرَرَ الْجِيَـادِ كَأَنَّمَـا
أَيْدِى بَنِى عِمْرَانَ فِـى جَبَهَاتِهَـا
أَلثَّابِتِيـنَ فُرُوسَـةً كَجُلُودِهَـا
فِى ظَهْرِهَـا وَالطَّعْـنُ فِـى لَبَّاتِهَـا
فَكَأَنَّهَـا نُتِجَـتْ قِيَامًـا تَحْتَهُـمْ
وَكَأَنَّهُمْ وُلِـدُوا عَلَـى صَهَوَاتِهَـا
تِلْكَ النُّفُوسُ الْغَالِبَاتُ عَلَى الْعُلَى
وَالْمَجْـدُ يَغْلِبُهَـا عَلَـى شَهَوَاتِهَـا
سُقِيَتْ سَنَابِتُهَا الَّتِى سَقَتِ الْوَرَى
بِيَدَىْ أَبِـى أَيُّـوبَ خَيْرِ نَبَاتِهَـا

فَانْظُـرْ إِلَى هذَيْنِ التَّخَلُّصَيْنِ الْبَدِيعَيْنِ فَالأَوَّلُ خَرَجَ بِهِ إِلَى مَدْحِ قَوْمِ الْمَمْدُوحِ وَالثَّانِي خَرَجَ بِهِ إِلَى نَفْسِ الْمَمْدُوحِ وَكِلاَهُمَا قَدْ أَغْرَبَ فِيهِ كُلَّ الإِغْرَابِ. وَعَلَى هذَا جَاءَ قَوْلُهُ:

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفَاتِكٍ
وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ
وَإِلاَّ فَخَانَتْنِي الْقَوَافِي وَعَاقَنِي
عَنِ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ ضُعْفُ الْعَزَائِمِ

وَاعْلَمْ أَنَّه قَدْ يَقْصِدُ الشَّاعِرُ التَّخَلُّصَ فَيَأْتِي بِهِ قَبِيحًا كَمَا فَعَلَ فَقَالَ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْغَزَلِ إِلَى الْمَدِيحِ:

غَدَا بِكِ كُلُّ خِلْوٍ مُسْتَهَامًا
وَأَصْبَحَ كُلُّ مَسْتُورٍ خَلِيعَا
أُحِبُّكِ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ
ثَبِيرَ أَوِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْجَمَالِ

وهذا تَخَلُّصٌ كَمَا تَرَاهُ بَارِدٌ لَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ مَسْحَةِ الْجَمَالِ شَيْءٌ وَهَهُنَا يَكُونُ الإِقْتِضَابُ أَحْسَنَ مِنَ التَّخَلُّصِ. فَيَنْبَغِي لِسَالِكِ هذِهِ الطَّرِيقَـةِ أَنْ يَنْظُـرَ إِلَى مَا يَصُوغُهُ فَإِنْ آتَاهُ التَّخَلُّصُ حَسَـنًا كَمَا يَنْبَغِي وَإِلاَّ فَلْيَدَعْهُ وَلاَ يَسْـتَكْرِهْهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ هذَا كَمَا فَعَلَ الْمُتَنَبِّيءُ.

وَقَدِ اسْتَعْمَل ذلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ فَقَالَ:

عَـلَّ الأَمِيـرَ يَـرَى ذُلِّـي فَيَشْفَعَ لِي
إِلَى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِـي الْهَـوَى مَثَـلاَ

وَالإِضْـرَابُ عَنْ مِثْلِ هذَا التَّخَلُّصِ خَيْرٌ مِنْ ذِكْرِهِ وَمَا أَلْقَاهُ فِي هذِهِ الْهُوَّةِ إِلاَّ أَبُو نُوَاسٍ فَإِنَّهُ قَالَ:

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحيَى بْنِ خَالِدٍ[1]
هَـوَاكِ لَعَـلَّ الْفَضْـلَ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا

وَلِهذَا نَظَائِرُ وَأَشْيَاءُ فَلْتَبَخَيَّرِ النَّاظِمُ.

وَالإِقْتِضَابُ الْوَارِدُ فِي الشِّعْرِ كَثِيرٌ لاَ يُحْصَى وَالتَّخَلُّصُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْـهِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ وَلاَ يَكَادُ يُوجَدُ التَّخَلُّصُ فِي شِـعْرِ الشَّـاعِرِ

---

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشـيد العباسـى وأخوه فى الرضاع، كان من أجود الناس، اسـتوزره الرشيد مدة قصيرة ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨هـ فحسنت فيها سيرته وأقام إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ وكان الفضل عنده ببغداد فقبض عليه وعلى أبيه يحيى وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما وأجرى عليهما الرزق، واستصفى أموالها وأموال البرامكة كافة. وتوفى الفضل فى سـجنه ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م وكان مولده سـنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٥ م قـال ابن الأثير: كان الفضل من محاسن الدنيا لم يُر فى العالم مثله.

انظـر المزيـد فى: وفيـات الأعيـان ١/ ٤٠٨، تاريخ الطـبرى ١٠/ ٦٢ و ٦٩ و ١٠٩، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٤.

الْمُجِيدِ إلاَّ قَلِيلاً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُقْتَضَبِ مِنْ شِعْرِهِ فَمِنَ الإِقْتِضَابِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي قَصِيدَتِهِ النُّونِيَّةِ الَّتِي أَوَّلُهَا يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي الدِّمَنِ وَهذِهِ الْقَصِيدَةُ هِيَ عَيْنُ شِعْرِهِ إلاَّ أَنَّه لَمْ يُكْمِلْ حُسْنَهَا بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْغَزَلِ إِلَى الْمَدِيحِ بَلِ اقْتَضَبَهُ اقْتِضَابًا فَبَيْنَا هُوَ يَصِفُ الْخَمْرَ وَيَقُولُ:

فَاسْقِنِي كَأْسًا عَلَى عَذَلِ
كَرَهَتْ مَسْمُوعَهُ أُذُنِي
مِنْ كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ
خَيْرِ مَا سَلْسَلْتَ فِي بَدَنِي
مَا اسْتَقَرَّتْ فِي فُؤَادِ فَتىً
قَدَرَى مَا لَوْعَةُ الْحَزَنِ

حَتَّى قَالَ:

تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ
قَامَ بِالآثَارِ وَالسُّنَنِ
سَنَّ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدَوْا
فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنِ

فَأَكْثَرُ مَدَائِحِ أَبِي نُوَاسٍ مُقْتَضَبَةٌ هكَذَا. وَمِنْ هذَا الْبَابِ قَوْلُ الْبُحْتُرِي فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِالْجُودَةِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْفَتْحَ بْنَ

خَاقَانَ وَذَكَرَ لِقَاءَهُ الأَسَدَ وَقَتْلَهُ إِيَّاهُ وَأَوَّلُهَا أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِى لِزَيْنَبَا وَهِىَ مِنْ أُمَّهَاتِ شِعْرِهِ وَمَعَ ذلِكَ لَمْ يُوَفَّقْ فِيهَا لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْغَزَلِ إِلَى الْمَدِيحِ فَإِنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ فِى تَغَزُّلِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

عَهِدْتُكَ إِنْ مَنَّيْتَ مَنَّيْتَ مَوْعِدًا
جَهَامًا وَإِنْ أَبْرَقْتَ أَبْرَقْتَ خُلَّبَا
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّدُودَ الَّذِى مَضَى
دَلاَلٌ فَمَا إِنْ كَانَ إِلاَّ تَجَنُّبَا
فَوَا أَسَفَا حَتَّامَ أَسْأَلُ مَانِعًا
وَآمَنُ خَوَّانًا وَأُعْتِبُ مُذْنِبَا

حَتَّى قَالَ فِى أَثَرِ ذلِكَ:

أَقُولُ لِرَكْبٍ مُعْتَفِينَ تَدَرَّعُوا
عَلَى عَجَلٍ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبَا
رِدُوا نَائِلَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ إِنَّهُ
أَعَمُّ نَدًى فِيكُمْ وَأَيْسَرُ مَطْلَبَا

فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِيحِ بِغَيْرِ وُصْلَةٍ وَلاَ سَبَبٍ. وَكَمَذلِكَ قَوْلُهُ فِى قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِالْجُودَةِ الَّتِى مَدَحَ بِهَا الْفَتْحَ بْنَ خَاقَانَ[1] أَيْضًا

(١) هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن عرطوج أبو محمد أديب شاعر، فصيح، كان فى نهاية الفطنة والذكاء، فارسى الأصل من أبناء الملوك، أتخذه المتوكل العباسى أخا له: استوزره وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وكان يقدمه =

وَأَوْلُهَا مَتَى لاَحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ فَبَيْنَا هُوَ فِي غَزَلِهَا حَتَّى قَالَ:

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الْجَدَى
إِذَا بَقِيَ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ وَالْقَطْرُ

فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِيحِ مُقْتَضَبًا لاَ مُتَعَلِّقًا بِهِ. وَأَمْثَالُ هذَا فِي شِعْرِهِ كَثِيرٌ.

وَالتَّخَلُّصُ غَيْرُ مُمْكِنٍ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ وَهُوَ مِنْ مُسْتَصْعَبَاتِ عِلْمِ الْبَيَانِ فَلْيَتَدَبَّرِ الشَّاعِرُ وَبِهذَا الْقَدَرِ مِنَ الأَمْثِلَةِ كِفَايَةٌ لِلطَّالِبِ.

(انتهى ملخصًا عن المثل السائر)

= على جميع أهله وولده. واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن. وألف كتابًا في "الصيد والجوارح" وكتاب "الروضة والزهر" وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م.

انظر المزيد في: الفهرست ١/ ١١٦، فوات الوفيات ٢/ ١٢٣، تاريخ ابن الشحنة ١/ ١٧٧، إرشاد الأريب ٦/ ١١٦، المرزباني ٣١٨.

الْفصلُ الْعَاشِرْ

فِى الخِتَامِ

هـذَا النَّوْعُ يَنْبَغِى لِلشَّـاعِرِ وَالنَّاثِرِ أَنْ يَتَأَنَّقَا فِيـهِ غَايَةَ لتَّأَنُّقِ وَيجْوِّدَا فِيهِ مَا اسْـتَطَاعَا لأَنَّهُ آخِرُ مَا يَنْتَهِى إِلَى السَّـمعِ وَيَتَرَدَّدُ صَدَاهُ فِى الأُذُونِ وَيَعْلَقَ بِحَوَاشِى الذِّكْرِ فَهُوَ كَمَقْطَعِ الشَّرَابِ يَكُونُ آخِرُ مَا يَمُرُّ بِالْفَمِ وَيُعْرَضُ عَلَى الذَّوْقِ فَيَشْـعُرُ مِنْهُ بِمَا لاَ يَشْـعُرُ مِنْ سِـوَاهُ حَتَّى لَوْ كَانَ فِى الذَّوْقِ فَيَشْعُرُ مَرَارَةٍ وَكَانَ حُلْوَ الثُّمَالَةِ طَيِّبَ الْمَنْزَعَةِ سَـتَر هذَا الْحُلْوُ تِلْكَ الْمَـرَارَةَ وَكَانَ هُوَ الْبَاقِىَ وَهِىَ الذَّاهِبَـةَ. وَلِذلِكَ يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْخِتَامُ مُمَيَّزًا عَنْ سَـائِرِ الْكَلاَمِ قَبْلَهُ بِنُكْتَةٍ لَطِيفَةٍ أَوْ أُسْـلُوبٍ رَشِـيقٍ أَوْ مَعْنًـى بَلِيغٍ وَيُخْتَارَ لَهُ مِنَ اللَّفْظِ الرَّقِيقُ الْحَاشِـيَةِ الْخَفِيفُ الْمَحْمِلِ عَلَى السَّمْعِ السَّهْلُ الْـوُرُودِ عَلَى الطَّبْعِ وَيُتَجَافَى بِهِ عَنِ الإِسْـهَابِ وَالتَّعْقِيدِ وَالثِّقَلِ وَغَـيْرِ ذلِكَ مِمَّا تَنْبُوعَتْهُ الأُذُونُ وَتَثْقُلُ مَؤُونَتُهُ عَلَى الذِّكْرِ فَتَذْهَبُ طُلاَوَتُهُ وَتَضِيعُ بِهِ مَحَاسِـنُ مَا قَبْلَهُ لأَنَّ كُلَّ تَالٍ مِمَّا سَبَقَهُ يمْحُو أَثَرَ مَا تَلاَهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِى الآخِرِ مَا يَخْلُفُ تِلْكَ الْمَحَاسِـنَ كُلُّهَا ذَهَبَتْ بِأَسْـرِهَا طَلَقًا. وَمَتَى جَوَّدَ الشَّاعِرُ أَوِ الثَّائِرُ فِى آخِرِ كَلاَمِهِ

كَانَ ذلِكَ دَلِيلاً عَلَى سَعَةِ صَدْرِهِ وَقُوَّةِ ضَرِيبَتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يُسْرِعْ إِلَيْهِ الضَّجَرُ وَلَمْ يَسْتَوْلِ عَلَيْهِ الْحَصَرُ وَلَمْ يَنْتَزِفْ مَادَّتَهُ الإِنْفَاقُ وَيَكُونُ مَثَلَهُ مَثَلَ الْفَرَسِ الْجَوَادِ كُلَّمَا ذَهَبَ مِنْهُ جَرْيٌ نَشِطَ لِغَيْرِهِ وَكَانَ فِي آخِرِ شَوْطِهِ أَقْوَى مِنْهُ فِي أَوَّلِهِ.

وَحُكْمُ الْخِتَامِ أَنْ يَكُونَ مُؤْذِنًا بِتَمَامِ الْكَلَامِ بِحَيْثُ يَكُونُ وَاقِعًا عَلَى آخِرِ الْمَعْنَى فَلاَ يَنْتَظِرُ السَّامِعُ شَيْئًا بَعْدَهُ وَأَظْهَرُ مَا يَكُونُ هَذَا فِي الْقِصَصِ الْمَسُوقَةِ كَمَا فِي الْمَقَامَاتِ مَثَلاً فَإِنَّ نِهَايَةَ الْوَاقِعَةِ تَدُلُّ عَلَى خِتَامِ الْمَعْنَى فَيُخْتَمُ بِهِ اللَّفْظُ. وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَعْنَى دَالاً بِنَفْسِهِ عَلَى الْخِتَامِ حَسُنَ أَنْ يُدَلَّ عَلَيْهِ بِكَلَامٍ آخَرَ يُذْكَرُ عَلَى عَقِبِ الْفَرَاغِ مِنْ سِيَاقَةِ الأَغْرَاضِ السَّابِقَةِ وَحُكْمُهُ أَنْ يَكُونَ مُنْتَزَعًا مِمَّا سَبَقَهُ فَيُقَفَّى بِهِ تَقْرِيرًا لِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَغْرَاضِ أَوْ إِجْمَالاً لِمُفَصَّلِهَا مُورَدًا عَلَى وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْبَلَاغَةِ أَوِ الْكَلَامِ الْجَامِعِ أَوْ مُخْرَجًا مُخْرَجَ الْمَثَلِ أَوِ الْحِكْمَةِ أَوْ مَا شَاكَلَ ذلِكَ مِمَّا تَعْلَقُهُ الْخَوَاطِرُ وَتُقَيِّدُهُ الأَذْهَانُ. وَهذَا مِنْ أَوْعَرِ مَسَالِكِ هذَا النَّوْعِ وَالظَّافِرُونَ بِقَلَائِدِهِ قَلِيلٌ لِعِزَّتِهِ وَامْتِنَاعِهِ وَأَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي الشِّعْرِ أَوْ مَا يُنْحَى فِيهِ مُنْحَاهُ مِنْ مَقَامَاتِ الْبَلَاغَةِ وَالْجَزَالَةِ وَذلِكَ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيءِ:

وَمَا أَخُصُّكَ فِي بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ
إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا

وَقَوْلِ أَبِي تَمَّام:

أَوْلَـى الْبَرِيَّـةِ حَقًّا أَنْ تُرَاعِيَـهُ
عِنْدَ السُّرُورِ الَّذِي آسَاكَ فِي الْحَزَنِ
إِنَّ الْكِـرَامَ إِذَا مَـا أَسْـهَلُوا ذَكَـرُوا
مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

وَكَقَوْلِ الزَّمَخْشَـرِيِّ[1] فِي خِتَامِ إِحْدَى مَقَالاَتِهِ إِنَّ الطَّيْشَ فِي الْكَلاَمِ يُتَرْجِمُ عَنْ جَفْوَةِ الأَحْلاَمِ. وَمَا دَخَلَ الرِّفْقُ شَـيْئًا إِلاَّ زَانَهُ

---

(١) هـو محمـود بن عمر بـن محمد بن أحمـد الخوارزمى الزمخشـرى جار الله أبو القاسـم من أئمة العلم بالدين والتفسـير واللغة والآداب. ولد فى زمخشـر (مـن قرى خوارزم) وسـافر إلى مكة فجـاور بها زمنًا فلقبه بجـار الله وتنقل فى البلـدان. ثم عـاد إلى الجرجانية "من قرى خوارزم" ولد سـنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م وتوفـى فيها سـنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤ م ومن أشـهر كتبه "الكشـاف" فى تفسـير القـرآن، و "أسـاس البلاغـة" و "المفصـل" و "المقامات" و "الجبـال والأمكنة والميـاة" و "المقدمة" معجم عربى فارسـى مجلـدان، و "مقدمة الأدب" فى اللغة و "الفائـق" فى غريـب الحديث و "المسـتقصى" فى الأمثـال و "نوابع الكلم" أدب و "القسـطاس" فـى العـروض و "نكـت الأعـراب فى غريـب الإعراب" رسـالة، و "الأنموذج" اقتضبه من المفصل و "أطواق الذهب" وله "ديوان شـعر" وكان معتزلى المذهب، مجاهدًا شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم فى الكشاف وغيره.

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ٢/ ٨١، إرشاد الأريب ٧/ ١٤٧، لسان الميزان ٦/ ٤، ظفـر الواله ١/ ١٢٥، نزهة الألبا ٤٦٩، الجواهر المضيئة ٢/ ١٦٠، آداب اللغة ٣/ ٤٦. مفتاح السعادة ١/ ٤٣١.

وَمَـا زَانَ الْمُتَكَلِّـمَ إِلاَّ الرَّزَانَةُ. وَكَقَوْلِهِ فِي خِتَـامِ أُخْرَى وَمَنْ جَاءَ بِالدَّعْوَةِ يُخْفِيهَا وَيَخَافُ الْمَدْعُوُّ فِيهَا فَيَا لَهَا مُحْكَمَةً ذَاتَ نِيرَيْنِ مُشْرِقَةً ذَاتَ نُورَيْنِ قَدْ أَخْرَجَتْهَا الْخُفْيَةُ مِنْ بَابِ الرِّيَاءِ وَأَدْخَلَتْهَا الْخِيفَـةُ فِي بَابِ الإِتِّقَاءِ وَلَكِنَّ النَّاسَ عَـنِ التَّحْقِيقِ رُقُودٌ وَالنَّظَرَ الصَّحِيحَ بَيْنَهُمْ مَفْقُودٌ. وَأَمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ فَالأَكْثَرُ فِي هذَا الضَّرْبِ أَنْ يُضَمِّـنَ غَرَضًا آخَـرَ مِنَ الدُّعَاءِ أَوْ عَـرْضِ النَّفْسِ عَلَى خَدْمَةِ الْمَكْتُـوبِ إِلَيْـهِ أَوِ تَوَقُّـعِ الْجَوَابِ مِنْهُ أَوْ غَيْرِ ذَلِـكَ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ مَقَامَـاتُ الْـكَلاَمِ وَتَقْتَضِيهِ دَوَاعِـي الْحَالِ وَهِيَ طَرِيقَـةُ الْكُتَّابِ وَالْمُوَلَّدِينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ ذَهَابًا إِلَى الْفَأْلِ أَوِ التَّبَرُّكِ أَوْ زِيَادَةِ التَّحَبُّبِ وَالتَّقَـرُّبِ مِنْ مَقَامِ الْمُخَاطَبِ أَوِ الْمَمْـدُوحِ وَأَكْثَرُ مَا يَخْتِمُونَهَا فِي النَّثْـرِ بَعْـدَ الأَغْرَاضِ الْمَذْكُـورَةِ بِقَوْلِهِمْ إِنْ شَـاءَ اللهُ أَوْ بِمَنِّ اللهِ وَفَضْلِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَالأَمْثِلَةُ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ كَقَـوْلِ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ فِي خِتَامِ صُورَةِ عَهْدٍ لِلْمَلِكِ الأَشْـرَفِ صَلاَحِ الدِّينِ خَلِيلٍ وَاللهُ تَعَالَى يَجْعَلُ اسْتِخْلاَفَهُ هـذَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًـا وَلِلْمُعْتَدِينَ انْفِصَامًا وَيُطْفِئُ بِمَاءِ سُـيُوفِهِ نَارَ كُلِّ حَطَـبٍ حَتَّـى تُصْبِحَ كَمَا أَصْبَحَتْ نَارُ سَمِيِّهِ بَرْدًا وَسَـلاَمًا. وَقَوْلِ الْوَزِيرِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِـمِ فِي خِتَامِ جَوَابٍ وَإِنَّ قَسِيمَكَ الْمُجِـلَّ لِقَدْرِكَ وَحَمِيمَكَ الْمُتَنَاهِيَ فِي بِـرِّكَ تَصَفَّحَ ثَنَاءَكَ مَجْدًا.

وَطَوْلاً وَاسْتَوْضَحَ إِخَاءَكَ عَقْدًا وَقَوْلاً وَأَعْطَاكَ صَفْقَةَ يَمِينِهِ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالإِكْبَارِ وَوَلاَكَ صُفْوَةَ يَقِينِهِ صَادِقَةَ الإِعْلاَنِ وَالإِسْرَارِ فَلَنْ تَزَالَ بِتَوْفِيقِ اللهِ تَجِدُهُ حَيْثُ تَنْشُدُهُ وَتَعْهَدُهُ عَلَى أَبَرَّ اتَعْتَقِدُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَقَوْلِ الْبَدِيعِ الْهَمَذَانِيِّ[1] فِي خِتَامِ رِسَالَةٍ وَلِلشَّيْخِ الرَّئِيسِ[2] فِي تَشْرِيفِي بِالْجَوَابِ وَتَعْرِيفِي بِسَارِّ الأَخْبَارِ وَتَكْلِيفِي

(١) هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذانى أبو الفضل أحد أئمة الكتاب. له "مقامات" أخذ الحريرى أسلوب مقاماته عنها. وكان شاعرًا وطبقته فى الشعر دون طبقته فى النثر. ولد فى همذان سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م وانتقل إلى هراة سنة ٣٨٠ هـ فسكنها ثم ورد نيسابور سنة ٣٨٢ هـ ولم تكن قد ذاعت شهرته. فلقى أبا بكر الخورازمى فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمذانى فى الآفاق. ولما مات الخوارزمى خلاله الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها ولا ملكًا ولا أميرًا إلا فاز بجوائزه. كان قوى الحافظة يضرب المثل بحفظه ويذكر أن أكثر "مقاماته" ارتجال وأنه كان ربما يكتب الكتاب مبتدئا بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه، وله "ديوان شعر" صغير. و "رسائل" عدتها ٢٣٣ رسالة ووفاته فى هراة مسمومًا سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م.

انظر المزيد فى: تيمية ٤/ ١٦٧، معجم الأدباء ١/ ٩٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٩، معاهد التنصيص ٣/ ١١٣، نهاية الأرب ٣/ ١١٠، دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٤٧١.

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو على على شرف الملك الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف فى الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات. أصله من بلخ ومولده فى إحدى قرى بخارى سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م نشأ وتعلم فى بخارى=

سَوَانِحَ الأَوْطَارِ وَتَصْرِيفِى عَلَى الأَمْرِ وَالنَّهْى رَأْيُهُ الْمُوَفَّقُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ فِى الشِّعْرِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّىءِ:

فَلاَ حَطَّتْ لَكَ الْهَيْجَاءُ سَرْجًا
وَلاَ ذَاقَتْ لَكَ الدُّنْيَا فِرَاقَا

وَقَوْلُهُ:

أَثِمَّ سَعْدَكَ مَنْ أَعْطَاكَ أَوَّلَهُ
وَلاَ اسْتَرَدَّ حَيَاةً مِنْكَ مُعْطِيهَا

وَقَوْلُ ابْنِ الْوَرْدِى[1]:

= وطاف البلاد وناظر العلماء واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة فى همذان وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتوارى ثم صار إلى أصفهان وصنف بها أكثر كتبه وعاد فى أواخر أيامه إلى همذان فمرض فى الطريق ومات بها سنة ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٧ م. قال ابن قيم الجوزيه: كان ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين، وقال ابن تيمية: تكلم ابن سينا فى أشياء من الإلهيات والنبويات والمعاد، والشرائع، لم يتظلم بها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم فأنه استفادها من المسلمين وإن كان إنما يأخذ عن أتباع الحاكم العبيدى الذى كان هو أهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد، صنف نحو مائة كتاب بين مطول ومختصر الشعر الفلسفى الجيد، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين.

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ١٥٢، تاريخ حكماء الإسلام ٢٧ - ٧٢، تاريخ ابن العبرى ٣٢٥، خزانة البغدادى ٤/ ٤٦٦، لسان الميزان ٢/ ٢٩١.

(١) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس أبو حفص زين الدين =

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ مَا أَحَبَّ وِصَالَكُمْ
وَغَايَـةُ مَجْهُـودِ الْمُقِـلِّ سَـلاَمُ

وَكَثِيرًا مَا يَخْتِمُ النَّاثِرُ بِقَوْلِهِ وَالسَّلاَمُ وَهُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الاخْتِصَارِ وَالإِيجَازِ وَيَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ فِي رَسَائِلِ الْعَتْبِ وَالْمَوْجِدَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذلِكَ. وَقَدْ يَخْتِمُ بِلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ أَوْ بِقَوْلِهِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ أَوْ وَالْحَمْـدُ لِلّهِ أَوْ وَاللهُ أَعْلَمُ أَوْ غَـيْرِ ذلِكَ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَالُ. وَرُبَّمَـا خَتَمَ بِمَثَلٍ أَوْ بِبَيْتٍ مِنَ الشِّـعْرِ وَلِكَ كَقَوْلِ الْخُوَارَزْمِيِّ فِي خِتَامِ رِسَـالَةٍ وَلَقَدْ سَـلَكَ الأَمِيرُ مِنَ الْكَرَمِ طَرِيقًا يَسْتَوْحِشُ فِيهَا. لِقِلَّةِ سَـالِكِيهَا وَيَتِيـهُ فِي قِفَارِهَا لِدُرُوسِ آثَارِهَـا وَانْهِدَامِ مَنَارِهَا

= ابن الوردى المعرى الكندى شاعر أديب مؤرخ. ولد فى معرة النعمان بسورية سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م وولى القضاء بمنبج وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م من كتبه "ديوان الشـعر" فيه بعض نظمه ونثره و "تيمـة المختصر" تاريخ مجلدان يعرف بتاريخ ابن الوردى جعله ذيلا لتاريخ أبى الفداء وخلاصة له. و "تحرير الخصاصة فـى تيسـير الخلاصة" نثر فيه ألفيـه ابن مالك فى النحو و "الشـهاب الثاقب" تصوف و "اللباب فى الإعراب" نحو و "شرح ألفية ابن مالك" نحو و "شرح ألفية ابـن معطى" نحو و "ألفية" فى تعبير الأحـلام، و "تذكرة الغريب" منظومة فى النحو و "مقامات" أدب و "منطق الطير" منظومة فى التصوف و "بهجة الحاوى" نظم بها الحاوى الصغير فى فقه الشافعية.

انظـر المزيد فى: فوات الوفيـات ٢/ ١١٦، بغية الوعاة ٣٦٥، النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٤٠، اعلام النبلاء ٥/ ٣، آداب اللغة ٣/ ١٩٢، طبقات السبكى ٦/ ٢٤٣، الدرر الكامنة ٣/ ١٩٥، بدائع الزهور ١/ ١٩٨.

أَعَانَــهُ اللهُ عَلَى صُعُوبَةِ الطَّرِيقِ وَقِلَّةِ الرِّيــقِ وَأَلْهَمَهُ صَبْرًا يُهَوِّنُ عَلَيْــهِ احْتِمَالَ الْمَغَارِمِ وَيُقَرِّبُ عَلَيْهِ مَسَــافَةَ الْمَكَارِمِ. فَبِالصَّبْرِ تُنَالُ الْعُلَــى وَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّــرَى. وَقَوْلِهِ أَيْضًا فِي خِتَامِ تَسْــلِيَةٍ وَلَكِنَّ الْغَضَبَ يُنْسِــي الْحُرُمَاتِ وَيَدْفِنُ السَّيِّئَاتِ وَيَخْلُقُ لِلْبَرِيءِ جِنَايَاتٍ:

وَإِنَّ أَمِيــرَ الْمُؤْمِنِيــنَ وَفِعْلَــهُ
لَكَا لدَّهْرِ عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ

انْتَهَى وَفِي هذَا الْقَدرِ غُنْيَةٌ لِلْبَصِيرِ وَفِي تَتَبُّعِ رَسَائِلِهِمْ وَخُطَبِهِمْ ودَوَاوِينِ الشُّعَرَاءِ مِنْهُمْ قَدِيمَهَا وَحَدِيثِهَا مَؤُونَةٌ كَافِيَةٌ بِهِدَايَةِ اللهِ وَتَسْدِيدِهِ.